الفصل الثامن

بين فكّي الكماشة

يقع المنزل الذي يقيم فيه أعضاء فريق الممبة التابع لشركة بلاك ووتر على جانب الشارع الرئيس داخل المنطقة الخضراء، وسط حقل من أكوام القمامة وجيف الكلاب. وكانت الرائحة الكريهة المنبعثة من الجيف المتعفنة ومن المواد البلاستيكية المحترقة تزكم أنفي. وقد وُضِعَت حافلة مصفحة زرقاء اللون لسد المدخل الفرعي المؤدي إلى المنزل بوصفه شكلاً بدائياً من أشكال البوابات الأمنية. وما إن شاهدنا الشخص العراقي الذي كان يجلس مستريحاً على كرسي بلاستيكي أبيض بجانب الحافلة، حتى قفز إلى الحافلة؛ لكي يزيحها عن الطريق فاتحاً لنا المجال للدخول. وكان المتعاقدون الأمنيون التابعون لشركة تربل كانوبي الذين جاؤوا بي من المطار يسخرون من قصور الإجراءات الأمنية لدى بلاك ووتر مستشهدين بقيام الحارس العراقي فتح الطريق قبل أن يعرف من نحن، أو أن يسأل عن بطاقات هوياتنا الشخصية، أما أنا فقد رأيت ذلك نوعاً من التأدب، فما عسى ثلاثة أمريكيين ضخام الجثة في سيارة بي إم دبليو سوداء من الفئة السابعة، أن يكونوا إلا متعاقدين أمنيين؟

obeikandl.com

كانت المنازل المتلاصقة والمتقاربة على جانبي الشارع تبدو مهجورة، إلا أن الشركات الأمنية تقيم في كثير منها. دخلنا عبر بوابة مفتوحة إلى منزل محاط بسور. وتزين ساحة مدخل المنزل شجرتان شاهقتان غير مقلمتين من النخيل. أما المنزل ذو الطابقين فكان منزلاً عادياً مبنياً من اللبن، وتغطيه طبقة من الغبار. وحتى مع القذارة، والمحيط المملوء بالقمامة، فإن أسعار العقارات في بغداد تضاهي أسعار العقارات في باريس، أو لندن، أو نيويورك، وتبلغ أجرة هذا المنزل المتضعضع ثمانين ألف دولار أمريكي في العام، وهي أجرة تُعَدُّ مغنماً بالنسبة لبلاك ووتر؛ لأنك الآن لا تكاد تجد منزلاً مشابهاً في المنطقة الخضراء بأجرة تقل عن 12 ألف أو 15 ألفاً دولار في الشهر. تغطي أكياس الرمال نوافذ المنزل، وامتلأت ساحة المنزل بصناديق الذخيرة، والبرادات، والكراسي البلاستيكية المتكسرة؛ ويمثل صوت مولد الكهرباء الذي يعمل بالديزل خلفية المشهد.

في الداخل، كان التشيليون يشاهدون البرامج التي تعرضها قناة فضائية تبث برامجها باللغة الإسبانية على شاشة تلفاز كبيرة، في حين كان المتعاقدون الأمريكيون منشغلين بحاسباتهم المحمولة، وحين دخلت الغرفة، رمقوني بأعينهم ثم عادوا إلى كتابة رسائلهم الإلكترونية وتصفح مواقع الإنترنت. وكان على الجدار فوق رؤوسهم لافتة تقول «يمنع تصفح المواقع الإباحية» وهي لافتة تتضمن مفارقة غير مقصودة. وكان الرجال يدخلون ويخرجون من باب المطبخ حيث كان فيه ثلاث فتيات عراقيات دائمات التبسم يقمن بإعداد طعام مكون من شرائح غير معروفة من اللحم. وها قد وصلت إلى المكان الذي سأقيم فيه طَوالَ الشهر المقبل، فقد أتيت إلى بغداد لملازمة فريق بلاك ووتر الأمني ومرافقتهم في دورياتهم اليومية من مَقَرِّهم إلى مطار بغداد الدولي والعكس. وسأبقى هنا أكثر شهر نوفمبر وبداية كانون الأول/ ديسمبر من عام 2004. وهي المدة التي شهدت أعلى معدلات للهجمات على طريق المطار. وقد عهد إلى مدير العمليات في شركة بلاك ووتر واسمه مايك رش بمهمة القيام بضيافتي طَوالَ مدة إقامتي هنا، غير أن مايك كان في الخارج. ولم يظهر أحد من الموجودين في المكان أي اهتمام بوجودي بينهم؛ لذلك قررت أن أتجوّل في المنزل وحدي.

كانت رائحة القهوة ورائحة شواء شرائح الهمبرغر المجمدة والبصل المقلي تفوح في أرجاء المنزل. يقع المطبخ قريباً من المدخل الرئيس للمنزل، وفيه يتناول أكثر الرجال هنا طعامهم وهم وقوف، ولا تتوقف آلة صنع القهوة عن العمل طوال الوقت. ويبدو أن أسراب الذباب في الداخل لا تقل عنها في الخارج، وكانت الغسالات الآلية تدور وتهمهم وهي تنظف ملابس المتعاقدين من الرمال، وكانت قوارير المياه المعدنية تملأ كل ما هو متوافر من مساحة على الرفوف، ويغطي جدار الغرفة التي تستخدم لتقديم التعليمات قبل الانطلاق خريطة كبيرة لمدينة بغداد وعليها عشرات النقاط للدلالة على مواقع الهجمات التي تحدث في المدينة.

وقعت عيناي على غرفة كان على بابها لافتة تقول: «الرجاء الإبقاء على الباب مغلقاً»، نظرت بداخلها، فرأيت رجلاً مفتول العضلات قد خالط الشيب لحيته التي تشبه عثنون التيس وهو يتحدث في الهاتف: «نعم، سنرسل ..». وقبل أن ينهي الجملة، لاحظ هذا الشخص وجودي في المكتب، فرفع رأسه ناظراً إليَّ وقال: «كائناً من تكون، أغرب عن وجهي وأغلق الباب خلفك!».

وحين التفت راجعاً إلى البهو، قال لي أحد المتعاقدين: إن «ذاك» هو غاي غرافينو، ضابط احتياط في القوات الخاصة برتبة رقيب، ويعمل الآن قائداً للوحدة الجوية التابعة لفريق المبة. أنشئ فريق المبة في الأصل؛ ليكون فريقاً سريع الانتشار، ثقيل التسليح ضمن وحدة الحراسة الشخصية لبول بريمر حاكم العراق المفوض من قوات التحالف، ولكن هذا الفريق يتولى الآن مهمة نقل المتعاقدين الأمنيين والشخصيات المهمة من المنطقة الخضراء إلى مطار بغداد الدولي وبالعكس.

قيل لي أن أضع حقيبتي في واحدة من غرف النوم في الطابق الثاني من المنزل، فصعدت الدرج إلى الطابق العلوي، ورأيت صناديق مكدسة من بنادق إم- 4، وصناديق ذخيرة، وأكياس رمال على جانب جدران الممر، وقد وعلقت على الجدار إرشادات توضح طريقة إخلاء المكان، وتؤوي الغرفة الواحدة ما بين ثلاثة إلى ستة أشخاص على أسرة

مفـردة أو ذات طبقتين، أو من النوع القابل للطي. والجامع المشترك في الديكور هو أنه لا شـيء في هذه الغرف يمكـن وصفه بالدائم، ولكل شخص خزانة وعدة حلاقة، ومجموعة مـن الأقراص المدمجة، والكتب، والأشيـاء التذكارية. ويبدو واضحـاً من حسن التنظيم والترتيـب، وعدم وجود أشياء مبعثرة في الغرفة، ووضع الأشياء بزاوية معينة، والمحافظة علـى نظافـة المكان أن الانضبـاط العسكري لا يزول بعد انتهاء الخدمـة في الجيش. ومع ذلك، انتابني شعور غريب بأنني انتقلت إلى مقر جمعية أخوية مليئة بالأسلحة الثقيلة.

توجـد على سطح المنزل شرفة مغطـاة بشبكة من الحبال، حيـث سأمضي فيها أكثر أوقات المساء في (...) التدخين، والتحدث إلى هؤلاء الرجال طَوالَ الشهر القادم. وتوجد علـى السطح أجهزة تمارين رياضية جديدة مهجـورة تغطيها طبقة ثخينـة من الغبار، ويبـدو أن بعض تلك المعدات هي مـن صنع منزلي، علب قهوة مملـوءة بخلطة إسمنتية، وبعضهـا الآخـر تبدو أنها من آخـر طراز من المعـدات الرياضية. وقـد جعلت الهجمات المتكـررة وقذائـف الهاون ذلك السطح مكانـاً مكشوفاً وعرضة للهجـوم؛ لذلك يستخدم المتعاقدون الأمنيون الصالة الرياضية الموجودة في قصر صدام حسين القديم.

يمكـن مشاهـدة المنظر القاتم للضواحـي المحيطة (مناظر غـير متناهية من المباني التـي تمتد إلى مسافات بعيـدة من كل الجهات). وعلى مقربة من المنزل، تسير الدبابات والعربـات المصفحـة التي تملأ الشـارع الذي يبدو كأنه محصـور في وادٍ محوط بجدران إسمنتيـة مرتفعـة، وتغطي الأسـلاك الشائكة الجانـب الخلفي من الجـدران وذلك لمنع العراقيـين من الاقـتراب، وتطوف في السـمـاء طائرات مروحية أمريكيـة من نوع بلاك هـوك وآباتشـي، مضيفة خلفية من الأصـوات الميكانيكية لهذا المنظـر الكئيب من ساحة الحرب.

نزلـت مـن السطح إلى الطابـق السفلي؛ كـي أتعرف علـى رفاقي الذيـن يقيمون في هـذا المسكن، ولا يشك الناظـر إلى الأشخاص الذين تجمعوا لمشاهـدة برامج التلفاز في أن هـذا الجمع هو تجمـع قبلي. ويظهر أن هـؤلاء الرجال يرتبط بعضهـم ببعض برباط

مشترك تظهر معالمه في طراز الملابس التي يلبسونها، وفي طريقة كلامهم، وتصرفاتهم، وثقافتهم. والوشوم الملتوية ذات الزوايا الحادة، والرؤوس المحلوقة، والسواعد المفتولة، واللحى القصيرة أو المقصوصة على شكل عثنون التيس، هي «المظهر المشترك» بينهم جميعاً. أما نكاتهم الجوّانية، وكثرة استخدامهم للمصطلحات المختصرة، والألقاب، تشير إلى أن لديهم طريقتهم الخاصة في التخاطب والاتصال. ويكتسب كل متعاقد لقباً يحل محل اسمه الحقيقي يخاطبه به رفاقه عبر جهاز اللاسلكي، وهذا اللقب عادة ما يتغير إذا ما اقترف المتعاقد شيئاً جديداً يجعله أكثر استحقاقاً للقبه الجديد. وليس للمتعاقد أن يختار لقبه بنفسه؛ بل عليه أن يقبل ما يختاره الآخرون له. فعلى سبيل المثال، استحق «شرك» و«مياغي» هذين اللقبين لمشابهتهما شخصيتين ظهرتا في فيلم سينمائي بهذين الاسمين، في حين استحق «86» و «كوغر» هذين اللقبين بسبب شيء فعلاه.

يدير شؤون المنزل شخصان هما: باري أو باز وهو جندي سابق في القوات الخاصة النيوزلندية، والآخر هو «رك» أو «بغدادي» وهو ضابط شرطة سابق في الولايات المتحدة ذو شعر أشقر، هذا إلى جانب الشخص الجلف غاي غرافينو. سيتولى «مياغي» قيادة فريق المبة الذي سأرافقه في جولاته اليومية، ويوضح لي مياغي بأن الأشخاص الذين سأتعرف عليهم هم جميعاً من «الطراز الأول» في قطاع المتعاقدين الأمنيين.

يعتقد كثير من الناس أن البنادق هي أكثر شيء يستهوي أي متعاقد أمني في العراق، لكن الحقيقة هي أن أكثر ما يستهويهم هو الحواسيب المحمولة، ويمكن للمتعاقدين الأمنيين شراء حواسيب محمولة عادية بأسعار رخيصة من متجر بي إكس القريب من معسكر النصر قرب المطار، وهذه الحواسيب تعد النافذة التي تصلهم بأوطانهم وأسرهم، وتطلعهم على الأخبار خارج صندوق الرمال.

يثير الاستفسار عن لافتة «يمنع تصفح المواقع الإباحية» موجة من الضحك في الغرفة، وقد بدأت المجموعة أخيراً بإبداء الارتياح من وجودي حولهم، وراحوا يخوضون في نقاش مطوّل حول أفضل المواقع الإباحية على الإنترنت.

عرفت من أول حوار لي مع فريق بلاك ووتر أن العيش في العراق يعني في نظرهم الملل، والخوف، والصداقة العميقة المتولدة من هذه التجربة المشتركة. إلا أن أهم ما يعنيه العراق لهم هو المال، فمع دقة عقارب الساعة بعد منتصف الليل يدخل يوم جديد، وهذا يعني مهمة جديدة، وهو ما يعني أيضاً زيادة في رصيد حساب الواحد منهم بمقدار 500 إلى 600 دولار. ويسعى كثير منهم، ولا سيما المتزوجون وأرباب الأسر، إلى العمل في العراق؛ لأنهم يملكون مجموعة من المهارات المتخصصة التي تؤهلهم لكسب دخل مالي أفضل من الرواتب المتدنية التي تدفع لموظفي الحراسة والأمن في الولايات المتحدة. وتلطّف الأموال التي يكسبونها هنا من معاناة وآلام البعد عن الأهل والأوطان. أما غير المتزوجين، فإن الأجر المرتفع الذي يكسبونه من هذا العمل يخفف من الشعور بالوحدة والبعد عن مجتمعهم ورفاقهم. وقد تمكن تي-بوي من تكوين علاقات صداقة غير تقليدية في أثناء إقامته في بغداد وأداء العمل الشاق الذي يدور حوله نقاشنا.

يحتفظ تي-بوي بقفص كبير أسفل الدرج يؤوي ببغاوين صغيرين ملونين من نوع الطائر الطيب. وأراني تي-بوي عشهما وقال لي: إنهما خسرا بيضة قبل تمام نمو الجنين فيها، وأنه يأمل أن تفقس البيضة الأخيرة. ولا يفهم أكثر القاطنين في هذا المنزل سر هذا الحب الجم الذي يوليه جندي سابق في المارينز لهذه الطيور الصغيرة، كما أنهم لا يخفون تذمرهم مما يصدر عنهما من زعيق. وفي أثناء إقامتي في هذا المنزل، استمتعت بالجوانب المتناقضة في شخصية هذا الرجل ذي البنية القوية، الحليق الرأس، الذي يلبس اللون الأسود من رأسه حتى قدميه، وقمصاناً ذات شعارات مبالغة في الرجولية، ووشوماً وتمائم متنوعة على شكل الجمجمة، ويقضي وقته في ملاطفة ومحادثة هذه الطيور الرقيقة الناعمة بعد عودته من عمل مجهد في جولة المطار.

وصل مايك رش الذي يتولى منصب نائب رئيس شركة بلاك ووتر، ومنصب المدير المسؤول عن العمليات الأمنية، فأراح الآخرين من عبء الاشتغال بضيافة «المراسل الإعلامي». ومايك هو رجل طويل القامة، هادئ الطبع، يقظ، حاد الذهن. ويوحي للناظر

إليه بأنه رجل كثير الأشغال والأعباء. ولا يعدم مايك نقصاً في المشكلات التي تحتاج إلى اهتمامه الفوري، ولا سيما أن مسؤولياته لا تقتصر على إدارة عمليات شركة دائمة التوسع كبلاك ووتر، بل تشمل كذلك ممارسة هذه المسؤولية وسط الفوضى العارمة في العراق، وأمَّا والفرصة الوحيدة التي يخلد فيها مايك إلى الراحة فهي في الليل، على سطح المنزل الذي يسكنون فيه.

كان الليل بارداً وصاخباً على سطح المنزل (...)، جلس أعضاء الفريق، وراحوا يتحدثون ويتمازحون، وتعالت أصوات ضحكنا بين جنبات المباني المربعة البشعة المحيطة بنا، فيما كان صوت مولد الكهرباء يهمهم بهدوء أسفل المنزل.

وفجأة سمعنا صوت انفجار خفيف تبعه انفجار قوي مدو، وكان هذا الصوت هو صوت انفجار سيارة مفخخة في مكان ما باتجاه القصر على بعد عدة مئات من الأمتار. ركز الرجال سمعهم تحسباً لسماع المزيد من الأصوات. ومن الغريب أنهم كانوا لا يسمعون أصوات انطلاق وانفجار قذائف الهاون التي لم تتوقف طَوالَ المساء. وقال لي مايك مشيراً بيده إلى إحدى الجهات من سطح المنزل: إن أربعة متعاقدين من الغورخا قتلوا في قصف مدفعي بالأمس استهدف المخيم الذي يسكنون فيه على بعد مئة ياردة من هذا المكان، وقد وقع الهجوم وهم نيام. وموت أربعة من المتعاقدين في يوم واحد جاء في أسوأ المراحل التي سجلت أعلى معدلات للوفيات في صفوف المتعاقدين الأمنيين. ويتذكر مايك بأن أسوأ تلك المراحل سجلت ما معدله وفاة 3.24 متعاقداً في الأسبوع. ثم انطلقت أصوات صفارات الإنذار من نقطة التفتيش العسكرية القريبة من المنطقة، لكنّ الشرب، والتدخين، والحديث، والضحك، عاد كما كان دون أن يتأثّر بأصوات الحرب التي تهيمن على الظلام.

يقول المتعاقدون: إن عملهم هنا ممل على الرغم من أنهم يقودون سياراتهم كل يوم على أخطر شارع في العالم. لقد أصبحت السيارات المفخخة، والطرق المغلقة، ونيران القناصة، والألغام الأرضية، والتعليمات الصباحية التي لا تنتهي، أمراً اعتيادياً في

حياتهـم. وفي بعض الأحيان قد يتأخـر انطلاق القافلـة الأمنية بعض الوقـت بعد ورود معلومـات استخباريـة عن احتمال وقوع هجوم في المنطقـة. وفي أحيان أخرى يغلق طريق المطار حين يقوم الجيش بإزالـة مخلفات تفجير سابق، وأحياناً تقوم الطائرات المروحية الصغـيرة بنقل الشخصيات المهمة إلى المطار فيلزم فريق المبة مكانهم في المنزل لتأدية بعض أعمال الصيانة والتنظيف. إلا أن الفريق في أكثر الأيام يبقى جاهزاً مادياً ومتهيّئاً نفسيـاً لهـذه المهمة، وكنت أجـد صعوبة في تصوّر كيف يمكن أن يكـون السير على طريق طولها أربعة أميال سيراً يتميز بالحدة والسرعة بين فكي كماشة مملاً. غير أن أصدقائي الجـدد قالوا لي: إنني عما قريـب سأعرف الفرق بنفسي. وعنـد انتصاف الليل، انفض الاجتمـاع، وأخذت أصوات قرقعة زجاجات الويسكي تسمـع حين جمع المتعاقدون أكياس القمامة متوجهين إلى الأسفل لأخذ قسط من النوم قبل شروق الشمس.

وفي صبيحة اليوم اللاحق، بدأ العمل الاعتيادي. كانت آلة صنع القهوة تعمل دون توقف، وكلمـا امتلأ إبريق جديد من القهـوة، أفرغه المتعاقدون في فناجينهـم الكبيرة. ووصلت الفتيـات العراقيـات إلى المنزل ليقمـن بإعداد فطور مشبع بالدهـون مكوناً من البطاطا المقليـة، والبيض، ونوع ما من شرائح اللحم المفـروم، وجلس الأذكياء من المتعاقدين وفي حجورهم حواسيبهم المحمولة التـي اشتروها حديثاً، التي ترتبط بالإنترنت لاسلكياً. أما البقية، فـكان عليهم التنافس على الحاسوبين الموجودين في المنزل. وانغمس المتعاقدون الذيـن جلسـوا على الكراسي والأرائـك المحشوّة الموجودة في غرفـة التلفاز وإلى جانبهم أكواب القهوة، في جلسة مطوّلة من المراسلة الفورية عن طريق الهوت ميل أو الياهو. وكان على المتعاقدين الذين ليس لهم أزواج أو خليلات في أمريكة أن يسددوا التزاماتهم المالية الشهريـة عن طريق الإنترنت؛ لأن هذه الالتزامـات لا تتوقف مهما كانت ظروف عملهم. فتـح «غريز» رسالة إلكترونيـة وصلته حديثاً؛ ليكتشف أن زوجـه طلت جدران المنزل من الداخـل باللـون البني. فصاح محتجاً «ما هـذا الجنون!» وتجمع الباقـون حوله لمشاهدة الصور وأبدوا تعاطفهم مع رأيه بهذا الاختيار غير الموفق لهذا اللون. وتابع «غريز» تذمره قائلاً: «اللعنة، اللعنة، إنه لون قاتم جداً».

مـع تفتق ضوء الصباح، خرج تـوول[1] الذي اكتسب هذا اللقـب لأسباب واضحة؛ فهو الميكانيكـي الموكل بمهمة فحص عربات الممبة والتثبت من خلوها من الأعطال التي يمكن أن تتوقـف بسببهـا في وسط الطريق لأن وقوفهـا سيكون كارثـة، وراح يتفحص العربات ولا سيمـا عدم وجود مـاء في الديزل؛ لأن الفريق واجه بعضـ المشكلات من وقت قريب. ويحرصـ توول على إعادة فحص العربات مـرة ثانية؛ لأن تعطل واحدة من هذه العربات وسط الدرب الآيرلندي يعني وقوع كارثة لا تحمد عقباها.

في تمام الساعة التاسعة والنصف، عقد أول اجتماع يومي صباحي، وقام غاي غرافينو بدعـوة الجميـع إلى غرفة الاجتماعات لمناقشـة بعض القضايا الإداريـة والأمور المتعلقة بتدبـير المنزل. هناك حاجة لشـراء مرشحات للزيت، وسوف تصـل قريباً دفعة جديدة من المتعاقدين. هذا بالإضافة إلى قضايا عادية أخرى تتعلق بالمنزل هي موضوع النقاش الحـالي. واستمر الاجتماع خمس عشرة دقيقة، ثم عـاد المتعاقدون إلى ساعة أخرى من إرسـال الرسائل الإلكترونية وتصفـح الإنترنت قبل العودة إلى اجتمـاع الساعة الحادية عشرة لسماع الإيجاز الأمني.

يقـوم غريز بجمع وتحليل المعلومات الاستخبارية المتعلقة تحديداً بعملية اليوم، ويقوم ميـاغـي بوضع النتائج في قالب مـن شرائح باور بوينت لعرضها في الاجتماع. ويشير رسم بيـاني لإحصاءات الهجمات التي وقعـت على طريق المطار إلى أن الهجمات تشهد تزايداً في الآونـة الأخيرة. وقد وقع في اليومين السابقين ستة عشر حادثاً من حوادث العنف على طريـق المطار. وبلغت أعـداد الهجمات حداً كبيراً لدرجة أنهـم توقفوا عن عرض تقارير الهجمـات اليوميـة مكتفين بذكر المجمـوع الكلي لتلك الهجمـات وأي تطورات جديدة في تكتيكات شنّها.

وقـد وقـع أحدث هجـوم تعرضت فيه قافلة تابعـة لبلاك ووتر قبـل أسبوعين على يد أربعـة وعشرين عراقيـاً مسلحين ببنادق كلاشنكوف. وتأتي أكـثر الهجمات من رصاص

1- والكلمة تعني بالإنجليزية العدة التي يستخدمها الحرفي أو الصناعي.

القناصة، أو من وابل من رصاص الأسلحة الخفيفة التي توجه على القافلة العابرة، غير أن أكثر الدمار يأتي من العبوات الناسفة التي تفجر من بعد، أو من السيارات المفخخة التي تصطدم بالقافلة. وبدت المواجهات كأنها لعبة القطة والفأر، حيث تعدل المقاومة من تكتيكاتها لتحتال على الدفاعات الجديدة التي يطورها الجيش أو الشركات الأمنية. وقد علمنا في الإيجاز الصباحي أن أحدث الهجمات الانتحارية تقوم الآن على توجيه الهجوم من أحد جانبي القافلة بعد أن بدأت قوافل الجيش وقوافل المتعاقدين الأمنيين تركز اهتمامها على السيارات التي تأتي مسرعة من خلف القافلة وعلى السيارات التي تتباطأ في المقدمة. ولكن المشكلة هي أن كثيراً من العراقيين العاديين اعتادوا الالتفاف إلى الجانب الآخر من الشارع إذا كان الجانب الذي يسيرون عليه مغلقاً أو يعاني من اختناقاً في حركة المرور.

التقط غريز معلومات استخبارية من الجيش هذا الصباح تفيد بوصول تقارير تتحدث عن احتمال وقوع هجمات انتحارية هذا اليوم. وعرض مياغي شريحة «باور بوينت» تتضمن قائمة بأنواع السيارات التي يمكن استخدامها في الهجمات المفخخة، وأرقام لوحاتها؛ كي يتمكن المتعاقدون من حفظها عن ظهر قلب. وكالعادة، اختارت المقاومة سيارات يابانية قديمة صغيرة يصعب تمييزها من بين أعداد لا تحصى من السيارات التي يراها فريق الممبة كل يوم. وفي العادة، تقوم المقاومة بسرقة سيارات قديمة آسيوية الصنع في هجماتهم وذلك لسهولة اختلاطها بالسيارات الأخرى. والمفارقة في هذه الإستراتيجية هي أن سرقة السيارات المستوردة القديمة ليست الهدف المفضل للصوص السيارات، ولهذا السبب يثير الإبلاغ عن سرقة سيارة قديمة ناقوس الخطر من احتمال استخدامها في هجمات مفخخة. ومن سوء حظ للمتعاقدين، وعلى الرغم من أن توافر معلومات مفصلة حول أرقام لوحات وأنواع السيارات التي يحتمل استخدامها في السيارات المفخخة هو أمر مفيد لقوات الشرطة، إلا أن المتعاقدين الأمنيين ليس لديهم وقت لمعاينة أرقام لوحة السيارات المتجهة نحوهم لمعرفة إن كانت ستنفجر في وجوههم أم لا.

تتبع بلاك ووتر سياسة تقوم على استخدام قوة نارية كاسحة في حالة تعرض قوافلها لهجوم مسلح، وهي سياسة تتبعها أكثر الشركات الأمنية العاملة في العراق. ويمكن

للفريـق الأمني أن يرد علـى الهجوم بفتح النار باتجاه القـوة المهاجمة لإرغام المهاجمين على الاختباء توقياً من إصابتهم برصاص البنادق الرشاشة مدة كافية تمكن الفريق من الانسحاب وفك الاشتباك. وفي حالة تعطل إحدى عربات القافلة، فإن المتعاقدين يمكنهم الاستيـلاء على سيـارة عابرة للهرب بهـا، أو الهرب ركضاً على الأقـدام، أو الاختباء في مكان محصّن والانتظار فيه ريثما تصلهم قوة إنقاذ.

بعد انتهاء الإيجاز، توجهنا إلى الخارج استعداداً لركوب العربات، وقد بهرني استعراض القـوة لدى فريق الممبـة وأدركت حينها السبـب وراء نزوع المهاجمـين في أكثر هجماتهم إلى أسلـوب الهجـوم الخاطف والفرار بأقصى سرعة ممكنـة. وفي أكثر الحالات، تتألف القافلة التي يتولى فريق الممبة حراستها على النحو الآتي: عربة ممبة في المقدمة، تتبعها شاحنة غير مصفحة تحمل الحقائب والإمدادات، وخلفها عربة ممبة ثانية تحمل الركاب المدنيـين المطلوب نقلهم من المطار أو إليه، وفي المؤخـرة عربة ممبة ثالثة لحماية القافلة مـن الخلف. وعربة الممبة المصفحـة بحديد تبلغ ثخانته ثلاثة أربـاع الإنش (2سم) هي عربة نقل للجنود مقاومة للألغام تم تحويلها إلى عربة مسلحة لخوض العمليات القتالية. ويمكـن لعربات القافلة جميعا أن تحمـل من الأسلحة ما مجموعه أربعـة رشاشات ثقيلة مـن نوع بي كـي إم مثبتة وسط العربة، وتحمل العربة الخلفية اثنين منها، وقد أراني أحد الرمـاة كيف يمكنـه بضغطة واحدة على الزناد أن يمطر هدفـه بحزام من الرصاص في ثـوان معـدودة. وكل واحد مـن رشاشات بي كي إم معبـأ بالذخـيرة وإلى جانبه صندوق إضـافي مـن الذخيرة يضع بين يـدي الفريق القدرة على إطلاق عـدد يتراوح ما بين ألف وسـت مئـة إلى ألفي طلقة عيـار 7.62 ملم في حال التعرض لهجـوم. ويحرص غيكو على اصطحـاب قاذفـة قنابل زيـادة في الاحتياط، وقد وضعها اليوم خلـف المقعد الأمامي في إحـدى العربات. ويحمل بعض أعضاء الفريق فوق أكتافهـم بنادق شبه آلية من نوع إتش كـي بي - 5، مع العلم أن المتعاقديـن التشيليين يفضلون بندقية إي كي - 47 الكلاشنكوف ذات الشريط المزدوج من الطلقات.

تضـم قافلة الممبـة بالإضافة إلى الأشخاص الذين يستخدمون رشاشـات بي كي إم الثقيلـة، ثلاثـة متعاقدين على الأقل مسلحـين تسليحاً جيداً في المقعـد الأمامي، والمقعد

الخلفـي، والنافذة الخلفيـة ، أو على الجانب. وكل موقع في القافلـة مكلف بحماية نطاق محدد. وذكر لي مياغي بأن كل متعاقد يحمل بندقية إم- 4 معبأة بمخزنين للذخيرة سعة الواحـد منهما ثلاثون طلقة على حزامـين مزدوجين لتسهيل الحركـة والالتفاف وإعادة تزويـد الذخـيرة إذا اقتضت الضـرورة. ويحملـون في السترة الروديسيـة ذات الجيوب المتعددة ثمانية مخازن إضافية من الرصاص وبذلك يكون في حوزة كل متعاقد ما مجموعه ثـلاث مئة طلقة من عيـار 5.6 ملم. كما يحمل كل واحد من أعضـاء الفريق مسدساً من نـوع غلوك معبأ وجاهزاً للاستعمال، إضافـة إلى مخزنين إضافيين من الرصاص. وذكر لي أحـد المتعاقدين: بأنه إذا وصل بنا الحـال إلى استخدام المسدسات فسأكون في ورطة حقيقيـة. ولمـا كان إلقاء قنبلة يدوية هو أفضـل وسيلة لفك الاشتباك مـع العدو في حالة الوقـوع في كمـين يشارك فيه عدد كبـير من أفراد المقاومة – وذلـك كما حدث مع إحدى الفـرق التابعـة لبلاك ووتر قبل أسابيـع- ، فإن أعضاء الفريـق يحرصون على الاحتفاظ بعـدد من هـذه القنابل في متنـاول اليد. والحقيقـة أن القنابل والصواريـخ غير مسموح للمتعاقديـن الأمنيين استخدامها في الأصـل، إلا أنه وفي ضوء عدم التزام المقاومة بشيءٍ مـن ضوابـط السلوك، فإن قـوات المارينز تزوّد الفـرق التابعة لبلاك ووتـر بكل ما يلزم لتأمـين سلامتهم. وحتى مع عدم وجود الصواريخ والقنابل والمسـدسات اليدوية، فيمكن لفريق الممبة العادي أن يطلق في لحظات سبع آلاف رصاصة على أي مهاجم.

لم يكـن لدي نيـة في حمل السلاح في أثنـاء الرحلة، ولكن أعضـاء الفريق ألحوا عليَّ وأقنعـوني بأننـي ما دمت راكباً معهم، فإن العدو لا يتوقـف للتمييز بين الكاتب والمتعاقد. وقالـوا لو وقع الفريق في الخطر، فإن ما أحمله معـي من سلاح وذخيرة يمكن الاستفادة منـه. وبكلمـات أخرى، إنهم يريدون منـي أن أكون «مخزناً احتياطيـاً للسلاح، فإذا وقع اشتبـاك مع العدو، سيكون بإمكانهم سحب مزيد من إمدادات الذخيرة من جثتي الملقاة علـى الأرض. وبخطا المـتردد، تناولت بندقيـة إم- 4، وسحبت الأقسـام إلى الخلف، ثم تفحصـت حجرة الذخـيرة للتثبت من خلوها من الرصاص، ثـم لقّمت مخزن الرصاص وأعدت الأقسام إلى وضعها الأصلي، وجعلت البندقية في وضعية الأمان، ووضعتها جانباً، ورحت أضع في السترة الروديسية مزيداً من مخازن الذخيرة للبندقية والمسدس.

تحـت تلك السترة كنت أرتدي بنطالاً أسود وقميصاً بنصف كم، وهو لباس لا يختلف كثـيراً عن «الزي الموحد» الذي يرتديه المتعاقدون الأمنيون؛ إذ يرتدي أكثرهم سراويلات رويال روبنز 5.11 ذات اللون الحنطي أو سراويل الجينز، مع حزام حنطي للعتاد من نوع بـلاك هوك ودرعاً صدرية صغـيرة مثلثة الشكل تحمل رقعة قماشيـة كتب عليها فصيلة دم حاملها، ويرتـدي بعضهم قبعات تحمل شعار بلاك ووتر. وتجد أكثرهم وأشهرهم في ذلك غريزلي فقد دق على عضلة ساعده وشماً لشعار شركة بلاك ووتر، غير أنه يصعب على المرء تمييز الشركة التي يعملون فيها دون هذه الفوارق الدقيقة، وبكل ما يرتدونه من معدات وأسلحة، يبقى مظهرهم أبعد ما يكون عن مظهر المدنيين.

ثـم لبست السترة الواقية مـن الرصاص ماركة كيفلر، وانسابت فـوق رأسي بسهولة، وشددتهـا حـول صدري بأربطـة الفلكرو العريضـة؛ فغطتني بإحكام كترس السلحفاة، وشعرت بالأمان مع أنني أعلم أن المقاومة العراقية استحدثت أساليب جديدة في التعامل مع الدروع الواقية من الرصاص وذلك بالتصويب نحو الرأس أو شرايين الفخذ. وأصبحت اشعر بصدري يضغط على ألواح السيراميك الصُّلبة في السترة الواقية من الرصاص حين وضعـت السـترة الروديسية فوق السترة الواقية من الرصاص. ثم وضعت خوذة من نوع كيفلر وثبتها حول رأسي بحزام يلتف حول الذقن، ثم لبست القفازات وواقيات الركبتين. كان منظر فريق الممبة لائقاً جداً حتى مع الخوذات وواقيات الركب، والتقطت لهم صورة تذكاريـة وكانوا في غاية الروعـة أمام عدسة الكاميرا. ومع قناعتـي التامة بأنني بكل ما ألبسـه من جهاز حربي وعتـاد أبدو أقرب إلى الغباوة منـي إلى الرجولة، أو ككاتب يمثل دور المتعاقـد الأمنـي- إلا أننـي صعدت إلى عربـة الممبة التي تتقـدم القافلة وجلست في موقعي ومعي آلة التصوير وحاسوبي اليدوي، وأبقيت على بندقيتي الرشاشة من نوع إم-4 إلى جانبـي تحسباً لأي خطر، وكانت أمنيتـي أن اقضي كل وقتي في تسجيل الملحوظات الصحيحة والتقاط الصور الصادقة.

وصلنـا نبأ يفيد بأن الجيش الأمريكي قد قام بإغلاق طريق مطار بغداد الدولي مرة أخـرى بسبـب انفجار سيارة مفخخـة، وهذه المرة كان الهدف قافلـة عسكرية مؤلفة من عربـات مصفحة. لذلك، اضطررنـا إلى أن نسلك طريقاً بديلاً يمـر عبر شوارع المدينة

المزدحمة؛ لكي نصل إلى المطار وننقل مجموعة جديدة من المتعاقدين الأمنيين الذين وصلوا إلى مطار بغداد. وسيجعل الزحامُ في الشوارع المكتظة الرحلةَ أكثر صعوبة وأشد خطورة، غير أن المتعاقدين تعودوا على مثل هذه التغييرات التي تطرأ على خطتهم في اللحظة الأخيرة قبل انطلاقهم.

بدأت أصوات محركات عربات القافلة التي تعمل بالديزل تزمجر كأنها مجموعة من الخيول المصابة بداء السِّل، ثم انطلقت عربات الممبة كأنها قطار من الفيلة الخرقاء، تسير بخُطا متباطئة إلى الأمام، وكانت عجلاتها تثير الغبار وهي متوجهة إلى الشارع الرئيس. سرنا باتجاه «جسر بروكلين» وهو نقطة الخروج من المنطقة الخضراء إلى المدينة مروراً بجامعة بغداد. وبعد توقف قصير وإلقاء التحية على جنود المارينز والغورخا[1] الذين يحرسون البوابة غادرنا المنطقة الخضراء، ودخلنا في «المنطقة الحمراء. وفي الحال تبدل المزاج؛ فتوقف المزاح، وذابت الفردية في الفريق لتكوّن شبكة متصلة من الحدّة. كل شخص موكل بمهمة أنيطت إليه- السائق، القناص الأمامي، القناص الخلفي. وكل شخص موكل بمراقبة نطاقه- المقدمة والمؤخرة، والميمنة، والميسرة. وتحولت الطبيعة السهلة والمنفتحة للمتعاقدين إلى أقنعة من التركيز الحاد.

ولو سلكنا الدرب الآيرلندي [طريق المطار]، لكانت السرعة الكبيرة التي تسير بها القافلة على الطريق السريع سبباً في جعل استهداف القافلة بنيران القناصة أو الأسلحة الخفيفة أمراً صعب المنال، ولا شك أن فرص إصابة الهدف الذي يسير ببطء تكون أكبر من الهدف الذي يتحرك بسرعة. وفي هذه الجولة سيزيد المتعاقدون من تركيزهم وانتباههم في مراقبة كل شيء مريب يظهر خلف كل شجرة أو نافذة، بدلاً من مراقبة السيارات القديمة يابانية الصنع التي تسير في الشارع. ومع أن الازدحام المروري في شوارع المدينة يبطئ من سرعة تحرك القافلة، إلا أنها تضيف طبقة جديدة من الحماية من السيارات المفخخة، دون استهدافها بنيران القناصة أو الأسلحة الخفيفة؛ لأن أي

1- وهم جنود نيباليون من أصل هندي يخدمون في الجيش البريطاني، وقد استخدمهم الإنجليز منذ أكثر من مئتي عام، ويشتهرون ببسالتهم في ساحة المعركة. ومعنى هذه الكلمة في أصلها السنسكريتي «حراس البقر» وفيها قدح وتعريض بالديانة التي ينتمي إليها هؤلاء الجنود.

مهاجم يريد مهاجمة القافلة عليه أن يشق طريقه وسط جدر متراصة من السيارات المزدحمة قبل أن يقترب من القافلة ويفجر سيارته.

يدرك أكثر السائقين العراقيين أن عليهم الإبقاء على مسافة طويلة بينهم وبين القافلة، ولكن عندما حاول أحدهم الاقتراب من القافلة لكي يتجاوزنا، سمعنا صوت انطلاق رشقة من الرصاص، تبعها انبعاث رائحة مادة الكوردايت في الهواء؛ وذلك لأنّ تي-بوي أطلق طلقة إنذار إليه من رشاش بي كي إم، ثم سمعنا صوتاً عبر جهاز اللاسلكي يحذرنا من أن حركة السير ستكون سيئة أمامنا. وكان هدير صوت محركات المبة يتقلب بين الهدير والأنين مع التباطؤ والتسارع في الحركة، وأخيراً توقفنا عن الحركة نهائياً.

ثم جاءنا نبأ عبر اللاسلكي يفيد بأن «الجيش الكبير» قد أغلق الطريق. فتساءلنا هل كان الإغلاق بسبب عملية عسكرية للجيش الأمريكي؟ أم بسبب سيارة مفخخة؟ فردّ غيكو متذمراً: «إننا لا ندري. نحن لا نكلّم الجيش الكبير، وإنما نقوم بما يطلبونه منا».

على الرغم من الإبقاء على مسافة بين القافلة وبين السيارات التي في الخلف والمقدمة، إلا أن السيارات العراقية في الاتجاه المعاكس بدأت تتجاوزنا، وبعضهم كان يرمقنا بنظرات تنم على الملل، وبعضهم الآخر تحس في نظراتهم كراهية حادة. وراح أحدهم يحاكي بيديه وصوته انفجار قنبلة «بوووم» ثم نظر إلينا بابتسامة شريرة مبتعداً عنا بسيارته. وتجمع الأولاد الصغار حول أعمدة الكهرباء وراحوا يحملقون بنا، وكان رجل آخر يمشي مسرعاً نحونا من زقاق قريب وهو يحمل شيئاً تحت معطفه الداكن. لقد أصبحنا هدفاً واضحاً محصوراً وسط بحر من اللظى المتوهج والسيارات المتوقفة، وكنا مكشوفين من جميع الجهات، وعرضة لهجوم معاد في أي لحظة، وليس أمامنا أي مخرج؛ لأن ازدحام السيارات يحول بيننا وبين الانسحاب من المكان. وبدأت أسائل نفسي في لحظة من اللحظات النادرة التي يمر بها الإنسان في محاسبة الذات، مشككاً في صحة اختياري لهذه المهنة التي أمارسها. وبدأنا نعزي أنفسنا بتذكير الواحد منا للآخر بصعوبة التحرك بسيارة مفخخة وسط زحمة السير، غير أن الشيء المعلوم الذي يعرفه الجميع هو السهولة التي يمكن لعناصر المقاومة أن تؤلف بها مجموعة لتنفيذ كمين سريع حين تشاهد هدفاً توقف في موقع مكشوف، وتذكرت هذه اللحظة بالذات بعد عدة أسابيع

حين قرأت عن تعرض فريق أدنبرة لتقدير المخاطر لهجوم «سمك القرش»- وهذه العبارة تعني في قاموس الأمن الهجوم المباغت السريع في الكر والفر- حين كان الفريق ينتظر فراغ الجيش الأمريكي من تأمين الطريق على مسافة تقل عن مئتي ياردة من المكان الذي حصرنا فيه.

رفعت البنادق والرشاشات جميعها وكانت في وضع الاستعداد منذ اللحظة التي غادرنا فيها المنطقة الخضراء، غير أن المتعاقدين الآن يتخذون موقفاً دفاعياً واضعين أصابعهم قرب الزناد، ومركزين أنظارهم عبر المناظير المقربة، أما أنا فرحت أجول ببصري عبر النافذة متأملاً المشهد المضغوط من السيارات المزدحمة، والمارة الذين ينظرون إلينا نظرات فضولية، والمباني ذات السطوح المربعة، وأطباق الفضائيات. وفي هذا الوضع المحفوف بالمخاطر، كان لدى كل متعاقد وفرة لا يمكن حصرها من الأخطار المحتملة التي يمكن أن تأتي من المنطقة المكلف بمراقبتها. وارتفعت وتيرة الاتصال بين عربات القافلة، وبدأ يظهر على الأصوات أثر الانفعال والشدّة العصبية.

«اللعنة! ما الذي يحدث هنا»؟!.

«لا أعرف، لقد أمر الجيش الكبير بإغلاق الطريق».

«لنخرج من هنا فوراً!»

«لا، انتظر قليلاً لعل الأزمة تزول ويفتح الطريق».

ويستمر النقاش عدة دقائق إلى أن تدخل مياغي قائد الفريق معلناً كلمة الفصل. فقال، بنبرة منتعشة: إن الطائرات المروحية الصغيرة ستتولى مهمة نقل المتعاقدين الجدد من المطار اليوم.

خرج أعضاء الفريق من عربات الممبة وبدؤوا بالسير بين السيارات المتوقفة، وهم يطرقون بأطراف بنادقهم نوافذ السيارات، فاقتنع سائقو السيارات بسهولة أن من مصلحتهم فسح المجال أمام عربات الممبة للالتفاف والعودة. وتوجه اثنان إلى الجهة المعاكسة من الشارع لوقف السيارات القادمة، ورجعت القافلة إلى الخلف ثم استدارت وقطعت الجزيرة الإسمنتية التي تفصل بين اتجاهي الشارع للعودة من حيث أتت.

بعـد أن عدنـا إلى المنطقة الخضراء، عـادت السلامة والأمان، وبـدأ أعضاء الفريق يذكـرون بعضهـم بالهجمات المحتملة التي كانت تحوم حولنـا في تلك اللحظات العصيبة التـي حصرنا فيها وسط الزحام. وحين بدأنـا بتفريغ متاعنا من العربات، أبدى بعضهم تذمرهم من الرحلة، أما البقية فلم يبالوا بما حدث. وقد تبين لي في الشهر الذي أمضيته برفقة فريق الممبة أن مهمة الدورية التي خرجنا فيها اليوم كانت أكثر من عادية. ففي بعض الأحيـان يغلق الطريـق بسبب انفجار سيارة مفخخة، وفي أيام أخرى قد تبرز أنواع كثيرة من المشـكلات التي تؤدي إلى إحباط المهمة. ويمكنني التنبـؤ استناداً إلى المدة المحدودة التـي قضيتها مع الفريـق بأن ثلاثة أرباع الدوريات المدرجة في جدول مهمات فريق الممبة تذهب فعلاً إلى المطار دون بأن تتعرض لتأخير أو إلغاء بسبب لا يتصل بهجمات مسلحة. ومع أن أكثر العاملين يستمتعون بيوم عطلة من الوظيفة، إلا أن دورية المطار في واقع الأمر تكسر الرتابة المملة للجلوس في البيت. وأظهر بعض المتعاقدين تذمرهم من الملل، وراحوا يبحثون عن شيء يشغلون به بقية اليوم.

في تلك الليلة، تجمع أعضاء الفريق لقضاء ليلة أخرى في الشرب والتدخين على سطح المنـزل. وفي هذه الليلة كانـت المنطقة الخضراء هادئة نسبياً، وكانـت أصوات الطائرات المروحيـة تسمع من مسافـة قريبة، وبالطبع لم تتوقف أصوات صفـارات الإنذار، غير أن الضجيج لا يرتفع هنا عن المستوى الذي تجده في مدينة نيويورك.

كنـت أنـا وميـاغي جالسين في جهة واحـدة، فقربت كرسيي منه، وبـدأت أطرح عليه أسئلـة كثيرة عن حياتـه. وربما كان ميـاغي الذي تجاوز الأربعـين من العمر، هو أقصر، وأهدأ، وألطف أعضاء الفريق. وبعد مرافقته أكثر من شهر يمكنني القول: إن هذا الرجل يستحيـل استفزازه، ولعل السـبـب يعود إلى نشأته في ضاحية إيكـو بارك، وهي ضاحية فقـيرة مـن ضواحي مدينة لوس أنجلوس، تنتشـر فيها الجريمة المنظمـة والعصابات المسلحة.

عمـل ميـاغـي سبعة عشر عامـاً في قسـم الشرطة السريـة وقسم الدوريـات الأمنية التابعـين لمديرية شرطة لوس أنجلوس. وبفضل الدخل الإضافي الذي تجلبه زوجه، تمكن الاثنان من شراء منزل جميل في بلدة سيمي فالي التي تبعد مسيرة ساعة ونصف الساعة

بالسيارة عن مكان عمله. وبعد خدمة دامت سبعة عشر عاماً، كان مياغي يتقاضى مرتباً بقيمة 1400 دولار كل أسبوعين، فترك العمل في جهاز الشرطة سعياً وراء دخل أفضل في المجال الأمني لدى شركة «فدرل إكسبرس». وذات مرة، اتصل به شرطي كان يعمل تحت إمرته في السابق، وطلب إليه أن يكتب رقم هاتف لشركة دينكورب، ففعل مياغي ذلك دون تردد: «أذكر أنه في أواخر التسعينيات، كان أكثر المبرزين من أفراد الأمن يذهبون للعمل في مهمات حفظ السلام سنة أو سنتين مع شركة دينكورب. ولما كان الوصف الوظيفي للعمل متعاقداً أمنياً خاصاً، فقد وجد مخرجًا قانونيًّا للإعفاء من الضريبة؛ إذ كانت دينكورب تدفع الرواتب من حسابات مصرفية من خارج الولايات المتحدة؛ لذلك لم يكن يصلك نموذج دفع الضرائب. فراتبي معفى من الضرائب، ويمكنك تحصيل مئة ألف دولار في العام خالية من الضرائب».

تقدم مياغي للعمل لدى شركة دينكورب في بداية عام 2003: «في ذلك الوقت، كان يدفع للمتعاقد الذي يعمل في تيمور الشرقية 105 آلاف دولار في العام، وفي البوسنة قرابة 90 ألف، وكوسوفو 89 ألف. عملت في كوسوفو عاماً واحداً، وتقدمت بطلب للعمل لدى بلاك ووتر في تشرين الثاني/ نوفمبر من عام 2003، وفي منتصف يناير من عام 2004 تلقيت رسالة من بلاك ووتر تعرض علي العمل بأجر مقداره ست مئة دولار في اليوم. كانت الشركة تبحث عن أشخاص مدربين؛ لكي يعملوا في فريق الحراسة الشخصية لبول بريمر حاكم العراق المؤقت. وكان عدد من الأشخاص الذين تركوا العمل في دينكورب في كانون الأول/ ديسمبر من عام 2003 ليلتحقوا بشركة بلاك ووتر قد أرسلوا إلينا رسالة عبر البريد الإلكتروني ونحن في كوسوفو قالوا لنا فيها: إن بلاك ووتر هي الصفقة الحقيقية».

«كانت الدورة التدريبية التي التحقت بها دورة عادية تستغرق عشرة أيام من التدريب. غير أن دورتنا كانت مكثفة ستة أيام، ولكننا تقاضينا أجراً عن عشرة أيام. قالوا لنا: إنها دورة متقدمة، وإننا جميعاً لدينا المعلومات الأساسية. وفي أثناء اليومين الأولين، رسب عشرة أشخاص. لقد بدأنا بسبعة وأربعين شخصاً وانتهينا بسبعة وثلاثين. وكان من بين الراسبين شخص لم يستطع أداء تمرين واحد لعضلات المعدة، وهو الآن يعمل في وزارة

الخارجيـة ضمن الحراسة الدبلوماسية. وفي منتصـف الأسبوع، قاموا بتوزيع الوظائف، وقسم المشاركون في الدورة إلى فئتين، فئة الحاصلين على أعلى درجات التراخيص الأمنية التـي تخولهم الاطلاع على أسرار الدولة، والفئة الثانية هم البقية. كان كلٌّ منّا يرغب في العمـل في فريق حراسة بريمر. ثم شاعت نكتة تقـول: إن عدم اختيار الشخص للعمل في فريق بريمر دليل على أنه ليس على درجة من الحسن والوسامة».

ومـن المؤكـد أن لا أحد مـن الأشخاص الجالسـين على سطح المنـزل كان على درجة مـن الحسن والجمـال؛ لأنهم جميعـاً كلفوا بالعمـل في دوريات «الـدرب الآيرلندي» بدلاً مـن حراسـة بريمر. وربما كان باز أقربهم جميعاً إلى هيئـة «الفتى الوسيم»، نظراً لكونه الشخص الوحيد في فريق الممبة الذي يتمتع بشهرة بسبب مشاركته في البرامج الدرامية التـي تقـوم على الحيـاة الواقعية. فقبل عـدة سنوات، كان بـاز نجمـاً في برنامج يشابه البرنامج الأمريكي «سيرفايفر» (أي الناجي الوحيد) الذي جرى تصويره في جزر فيجي ليعرض على الجمهور النيوزلندي. ويستمتع بقية الفريق في ممازحته بشأن تلك التجربة. وواضـح أن ذلـك كان بدافع مـن الغيرة. وتبين لي في تلك الليلـة أن باز لم ينل شهرته في ذلـك البرنامج لكونه الشخص الوحيـد الذين استطاع البقاء من بـين المتنافسين الذين دخلـوا للعيش في الغابة، بل لأنه كان يمضي وقته خارج مُدَدِ التصوير في معاشرة مضيفة البرنامج المشهورة ذات الجمال الأخاذ.

دخلنـا في ساعـة متأخـرة من الليـل وذهب اثنان مـن المتعاقديـن إلى النوم حين قـرّب باز كرسيه إلى الجانب الذي أجلس فيـه وبدأ يروي لي بقية قصته. وتحدث لي بالتفصيـل عن أخوته التوائم، توءمين من الإخوة أعمارهما أربع عشرة سنة، ومثلهما مـن الأخوات عمرهمـا اثنتا عشرة سنة. ويعشق باز التحـدث عنهم، وترى البريق في عينيه وهو يعدد إنجازاتهم.

وأسـر لي بأنه قد قرر الزواج مـن صديقته التي يعرفها منذ وقت طويل حين يعود إلى الوطـن. فقد وقفت إلى جانبه، وعاشت معه همومه، وتحملت نمط الحياة غير العادي في غيابه عنها مدة طويلة من الزمن.

حـين كان باز في نيوزلندة يعمل ضمـن قوات ساس، كان الفريق الذي يعمل فيه مكلفاً بتعقـب مجموعة من العصابات في تيمـور الشرقية اشتهروا بتقطيـع آذان عمال الإغاثة المختطفـين لديهم. وحين خرج من الخدمة، عمـل في الحراسة الشخصية، وكان عملاؤه من النجوم المشاهير إضافة إلى سلطان بروناي. وبعد أن سرد أهم معالم حياته ومهنته، اقترب باز مني أكثر. ولاحظت تغيراً واضحاً في جو الحوار بيننا وشعرت بثقل من الذكريات يتنزّل على فكره. وبصوت متوتر، قال لي: «كان أبي شديداً عليّ، كان يعمل سائس خيول، رجـلاً قصيراً جداً لا يكاد يقـف إلى هذا الارتفاع». وضع باز يده على ارتفاع أربعة أقدام (1.21مـتراً) من الأرض وتابـع حديثه. «لم يكن باستطاعتي مهما فعلـت أن أرضيه. ثم إنـه تعرض لحادث سير أصيب على إثره بشلل أقعده وألزمه الكرسي المتحرك... يا إلهي كـم كان قاسياً. لقد كنت أعمـل ضمن حرس سلطان بروناي في ذلـك الوقت، وكان علي أن أرافـق السلطـان في سفـره، وحين وصلني نبـأ مرض أبي، لم يكن بإمـكاني زيارته في الوقت المناسب. فأخذت ثاني رحلة بالطائرة إلى الوطن، ولكنه توفي وأنا في طريقي إليه. وحـين ذهبت لجمع متاعه وأشيائه، وجدت فيها كل مـا يتصل بخدمتي في قوات سـاس، أي كلٌّ مـا ورد في الصحـف عني. لقد كان يحتفظ بكل شـيء فعلته». ثم توقف باز وأشاح بوجهه برهة من الوقت، ولم يظهر في ذلك الظلام سوى الوهج الأحمر المنبعث من طرف سيجـاره. وحـين عاد لينظر إليَّ، طرح عليَّ سـؤالاً مؤلماً لا أملك لـه إجابةً: «لماذا لم يكن يخبرني بذلك؟».

ومع أن جلسات السمر على سطح المنزل هي جزء مهم من الحياة اليومية للمتعاقدين، إلا أنهـم منضبطون في شربهم. سألني مايك إن كنت أرغب في مرافقته في اليوم اللاحق في جولـة لخوض غمار البيروقراطية في القصر. وذكّر الحـوار مايك بالاعتذار إليّ؛ لأن وزارة الخارجيـة الأمريكيـة سحبت التصريح الذي يسمـح لي بمرافقة فريق بلاك ووتر الذي يتـولى حراسة الموظفين التابعين لوزارة الخارجية في الحلـة: «إن فرانك، الضابط الإقليمي للأمن، يلاحقنا في كل صغيرة وكبيرة. إنه يدعي بأنني التقطت صورة لشخص مـن وزارة الخارجية وقلت: إنه من المرتزقة». وهـز مايك كتفيه ورأسه، في دلالة واضحة على دهشته من هذه التهمة؛ فأصدروا عقوبة بمنع أي كاتب يرغب في قضاء وقت هناك،

ولكـن ما أثـار غرابتي هو منعهـم مايك من الذهـاب إلى الحلة. وبدا واضحـاً أن مايك يحارب على جبهتين: الحكومة من جهة والمقاومة العراقية من الجهة الأخرى.

في اليـوم اللاحق توجهت برفقـة مايك للحصول على تصريح رسمي يسمح لي بالدخول إلى القواعد العسكريـة والمنشآت الحكومية، وقد قامت وزارة الدفاع الأمريكية بتغيير شكل تلـك البطاقات مرة أخرى، لذلـك أراد مايك أن يستبدل ببطاقتـه القديمة بطاقة جديدة. وبالأخـذ في الحسبـان أن مايك يحمل أعلـى درجات السماح بالاطلاع علـى أسرار الدولة، ويتـولى إدارة أكـبر الشركات الأمنية في العراق- الشركة التـي تتولى توفير الأمن والحماية لبـول بريمر والمكاتـب التابعة لوزارة الخارجية- فـإن المرء يتوقع أن يكـون إصدار البطاقة الجديدة إجراءً فورياً تلقائياً. وقد سبق لمايك أن تقدم بطلب لتجديد تصريحه حين كان في الولايات المتحدة ولكنه لم يتلق أي شيء منذ ذلك الوقت. ويعتقد مايك أن السبب هو «قاعدة العشريـن دقيقة»- ويعني بذلك أن عليه أن يراجع الوزارة كل عشرين دقيقة لمعرفة الأنظمة والتعليمـات الجديدة التي أصبحت سارية المفعول- التي ربَّمـا أنها ألغت طلبه الأول. وعلى الرغـم من أنه خصص يوماً كامـلاً للتنقل بين المكاتب التي اتخذت من قصر صدام حسين مقراً لها، إلا أنه لا يبدو متفائلاً بشأن تجديد التصريح في هذا اليوم، وهو أقل تفاؤلاً بشأن حصولي أنا على بطاقة مشابهة. لقد حاول مايك الاستعانة بأصدقائه ومعارفه في المستويات الحكوميـة الدنيـا أولاً، وقال لي: إننـا لن نذهب إلى رئيس الجهاز الأمنـي إلا بعد تخفق كل المحـاولات؛ لأن العلاقة بين الاثنين ليست في الجانب الودي، ويظن مايك أن المسؤول الأمني لن يساعده في الحصول على التصريح حتى وإن كان يقدر على ذلك.

في الوقـت الذي نجد فيـه أن أكثر المجتمع المحاط بالأسـوار في المنطقة الخضراء قد تقمـص الشخصيـة الأمريكية التجارية الوظيفية على نحو صـارم، إلا أن المركز الرئيس لعمليـات الحكومة الأمريكيـة «القصر» بقـي يحتفظ، ومن غير شعـور بالذنب، بملامح الشخصيـة العراقية في البـذخ والبهرجة. في الداخل، متاهة طويلـة من الغرف الكبيرة المقببـة والمداخـل المقوسة، والأسقف المزخرفة التي تتابع مـع كل خطوة إلى الداخل. وفي إحـدى القاعـات الكبيرة الفخمة تحديـداً، أقام الجيش شبكة متصلـة من الحجيرات الخشبية المربعة الصغيرة غير المسقوفة. وهو قرار معماري مثير للدهشة، تحول بموجبه

مشهـد أنيـق من مشاهد ألف ليلـة وليلة إلى خص دجاج. وذكرني هـذا المنظر بالحكمة اليونانية القديمة التي تقول: إن العمارة الرفيعة تُلهم النفس أفكاراً رفيعة.

سرنا عبر هذه المكاتب متخطين جنوداً، وطيارين، وموظفين حكوميين، منهمكين بإرسال الرسائل الإلكترونية، وتقليب الأوراق والوثائق قبل أن نعثر على مربع خشبي عرضه ثلاثة أقـدام يعمـل فيه شخص سمع مايك أنه ساعد آخرين مـن رفاقه في تجديد تصاريحهم. كان هذا الضابط ذو الأسنان الكبيرة الذي يعمل في سلاح الجو، لطيفاً ووديا ولكنه عديم الفائدة. وأوضح لنا أن قاعدة التسعين يوماً، وهي مدة انتداب موظفي الجيش في العراق، التـي يتبعها الجيش تعنـي أن «الثلاثين يوماً الأولى تمضيها في التعرف إلى ما يدور حولك وإصـلاح مـا أفسده مـن كان قبلك. ثم تمضي شهـراً واحداً في العمـل الجيد، ومع دخول الشهـر الثالـث تتكون لديك قناعة بأن ما ستبدؤه من عمل لن يكون له فرصة في الاكتمال، لذلـك ستتركـه مكوماً للشخص الذي سيحل محلك في الشهـور الثلاثة القادمة. وقد بقي لهذا الضابط ثلاثة أسابيع في بغداد، وهو يتهيأ الآن للخروج من حجيرته الخشبية.

وبعد أن باءت محاولاتنا بالإخفاق، قررنا التوجه إلى مسؤول وزارة الخارجية. فوجدناه في مكتـب رث خلف بـاب واهن، وخلفه خزانة مغلقة فيها بندقيـة إم - 16، ويبدو أن هذا الرجل ينظر إلى حياته ووظيفته بقدر قليل من التفاؤل. فعرض على مايك عرضاً مبتذلاً بـأن يصدر له تصريحاً أمنياً محدوداً وذلك علـى الرغم من علمه أن أكثر الأعمال التي يقوم بها مايك تتعلق بأشخاص يحتلون وظائف عليا، ويعملون في مواقع محاطة بإجراءات أمنيـة مشددة. وقال: إن البديل الوحيد هـو أن نتجاوزه إلى رئيسه الأعلى، وهذا الرئيس هو الشخص النكد الذي تحدث عنه مارك آنفاً؛ فوافق مايك على مضض.

دخلنـا إلى المسـؤول عن الأمن واسمـه فرانك، وهو رجل مسـن ذو شعر فضي، يلبس الجينز، ويحمل مسدس غلوك على خصره. قال لنا، وهو يقلب بعض الأوراق على مكتبه: إنـه مشغول جداً في إنجاز بعض الأمـور؛ لأن مهمته ستنتهي في هذا الأسبوع. وقال بنبرة الشخـص المتعـالي المثقل بإنجاز عدد كبير مـن الأمور المهمة: «لقد كانـت الأيام القليلة الماضيـة صعبة للغاية»، وذكّر مايـك بالستة عشر هجوماً التي وقعت في الثماني والأربعين ساعة الماضية التي كانت على لسان كل شخص، وكأن مايك ليس لديه علم بها.

وفي الوقت الذي كان فيه فرانك منغمساً في التحدث عن مدى أهميته وكثرة أشغاله، استرعت انتباهي الطريقة الفظة التي ردت بها سكرتيرته على فتاة أمريكية ذات شعر أسود بقولها: «أتريدين ثلاثة عشر تصريحاً؟ إنني لا أستطيع أن أمنحك ثلاثة عشر تصريحاً. لقد سبق أن حصلتم على تسعة تصاريح من وقت قريب. فلماذا تريدون المزيد؟» فردت الفتاة الأمريكية التي ظهرت عليها علامات الانزعاج بصوت خافت إجابةً على سؤالها: «نظراً إلى حساسية المهمة التي نقوم بها، فإنني لا أستطيع مناقشة هذا الموضوع». ثم قالت للسكرتيرة: إنَّها تريد المزيد من التصاريح للمترجمين العراقيين المقيمين في فندق الرشيد (وهو محطة تستخدمها الاستخبارات الأمريكية). ويبدو أن كل الإشارات والتلميحات لم تفلح في إقناع السكرتيرة، وأصرت المرأة على مقابلة الشخص المسؤول عنها. توجه فرانك إلى غرفة صغيرة مجاورة لمقابلة المرأة، ولكنه عاد بسرعة ليطلب من سكرتيرته الشكسة إصدار التصاريح المطلوبة، ثم عاد إلى مايك معتذراً له عن عدم استطاعته المساعدة في طلبه قائلاً: «ليس في استطاعتي ما يمكن فعله لك». ويبدو أن حصول العراقيين على تصاريح أمنية أسهل من حصول مايك عليها.

وبالعودة إلى منزل فريق بلاك ووتر، قال لي غاي غرافينو: إنه كان الأولى بمايك أن يأخذني لمقابلة لورانس وليس لـ «لاري» بيتر حين كنا في القصر. كان بيتر يعمل بصفة منسق الشركات الأمنية لدى سلطة التحالف المؤقتة، ولكن بعد حل تلك السلطة، لجأ لورنس إلى الشركات الأمنية طالباً منها تمويل بقاء عمله على صورة مؤسسة خاصة. وبوصفه المدير الإقليمي لجمعية الشركات الأمنية في العراق، فإنه يضطلع بوضع إجراءات وأصول نموذجية موحدة، وتحسين سبل الاتصال مع المتعاقدين الأمنيين العاملين في العراق. وكان بيتر يرفض مقابلتي رفضاً باتاً؛ لذلك رأيت أن مرافقة شخص من بلاك ووتر للقاء هذا الرجل ربما يلطف من الأجواء، وقد استشعرت من حديثي مع غاي أن بيتر ربما يكون عصبي المزاج بعض الشيء، غير أنني حين قابلته بعد بضعة أيام وجدت أن عبارة عصبي المزاج بعض الشيء قاصرة عن وصف هذا الرجل.

لقد وجدته رجلاً قصير القامة، ألثغ، ويريد من كل الناس أن يعرفوا أنه خدم في فريق سيل - 6، مع أن عدداً من الذين خدموا في ذلك الفريق يعرفونه، ويؤكدون أنه كان

يعمـل محلل استخبارات، ولم يكن في الخدمة الفعليـة للفريق. وحين ذهبت إلى مقابلته، تهـت بين مكاتب مكتظة محشورة تجلس فيهـا مجموعات من الموظفين المدنيين متوسطي العمر كانوا يعاينون الوثائق ويضغطـون بأصابعهم على لوحات مفاتيح أجهزة الحاسوب التـي أمامهم، قبـل أن أعثر على المكتب الرئيـس لجمعية الشـركات الأمنية الخاصة في العـراق الـذي كان مندثراً في أعمـاق القصـر. وكان يجلس في هذا الصنـدوق الخشبي الأبيض الصغير لورنس بيتر ومعه رجلان متوسطان في العمر.

لم تكـن لدى بيـتر رغبة في مقابلتـي أو التحدث إلي، وقد صرّح هـو نفسه بذلك عند رؤيتي، وقال لي: إن السبب الوحيد وراء قبوله مقابلتي هو أن الشركات الأمنية طلبت منه ذلـك. وبعد بضع دقائق من إلقاء التعليمات تولـدت لدي فكرة بأنه لا يحب الصحافيين، لذلـك لم أستغـرب من أن أبرز لوحة تزيّن جدار مكتبه هـي ملصق بوستر يعود إلى عهد الحرب العالمية الثانية يقول «ما رأيك بفنجان لذيذ من: اخرس قطع الله لسانك»؟.

كان الانقـلاب الأخير الذي قام به بيتر في مجـال العلاقات العامة لمصلحة الشركات الأمنيـة الخاصة هو دعوة الصحافية تيش دوركن التي كانت تصر على أنها بصدد كتابة تقريـر إعلامي عـن المتعاقدين الأمنيين وصناعة الأمن الخاص. وقد قام بيتر بتعريفها علـى أبرز اللاعبـين الرئيسين في الحقل، ولكنهـا حوّلت تركيز عدستهـا الإعلامية على متعاقـد أمني لامع يحـب البهرجة، وكانت النتيجة هي نشر أكـثر التحقيقات الصحافية إضراراً بسمعة الشركات الأمنية الخاصة. وعرض التحقيق الصحافي الذي نشرته مجلة رولينغ ستون تحت عنوان «مرتزقة الهيفي ميتال»[1] جوانب شخصية «وولف وايز» وهو كما يصـف نفسـه بأنه نجم من نجوم موسيقـا الروك، ومؤمن عـاد إلى الدين المسيحي من جديـد، وجندي سابق في قوات المارينز. وتصـوره دوركين في تقريرها بأنه جندي مرتزق حـر يهوى بناء العضلات، وابتلاع حبـوب الستيرويد، وإطلاق النار. لقي وولف حتفه بعد نشر المقالة برصاصة من رصاص المقاومة العراقية، وجاء موته بعد أن ترسخت الصورة التـي عرضتهـا دوركين عنه في أذهان العامـة. وساعدت مقالة مجلـة الرولينغ ستون في

1- المعنى الحرفي لعبارة هيفي ميتال هي الفلزّات أو المعادن الثقيلة، لكن هذه العبارة أصبحت تستخدم للدلالة على موسيقا الروك الصاخبة ذات الإيقاع الشديد، التي تستخدم فيها عبارات العنف والصور الخيالية.

تشكيل انطباع متصوّر عن المتعاقدين الأمنيين بأنهم أشخاص متعطشون للدماء، مفتونون بالبنـادق، مهوّسون بالمسيح، منتشون بموسيقا الروك الصاخبة وحبوب الستيرويد، وقتل العراقيين الأبرياء.

لهذا السبب ليس غريباً أن يعتقد لورنس بيتر بأنني –بصفتي كاتباً زائراً– ربما أكون النسخـةَ الأحدثَ مـن أعداء المسيح. وقد حاولـت أن أركزّ له على الفـرق بين الصحافي والكاتـب، لكـن قناعاته العقلية بقيت تقول لـه: إنني «واحد منهـم». فيئست من محاولة إقناعـه ورحت أحاول البدء بالمقابلة. بدأت بأخذ موافقته أولاً على تسجيل الحديث الذي يدور بيننا.

كان أول شيء أراد أن يقوله لي هو: «إنني أمثل أكثر من خمس وعشرين شركة أمنية، ونمارس عملنا على أساس من الثقة. بعض الشركات تسهم بعشرة آلاف دولار، وبعضها الآخـر تدفع بحسـب قدرتها». ومع أن هناك خمساً وعشرين شركـة تموّل وظيفته، إلا أن بيتر يقول: إنه يوجد عدد يتراوح ما بين ستين إلى مئة شركة تعمل في العراق، وهو يفترض أن تقـوم هذه الشركات بالتسجيـل لدى وزارة الداخلية العراقيـة، والحكومة العراقية لا تطلـع بيتر على الأرقام الدقيقـة؛ لذلك لا يتوافر لديه رقم دقيق معقـول لعدد الشركات الأمنية العاملة في العراق.

ومـع أننـي كنت أستمـع إليه باهتمـام وإخلاص، إلا أن بيتر كان عدوانيـاً نزقاً في تعاملـه، وبقـي يوجـه إلي اللوم على كل ما لحـق الشركات الأمنيـة الخاصة من تغطية إعلاميـة سلبيـة. قوطع حديثنا بدخـول أحد زملاء بيتر في العمـل، وقد كتمت ضحكي حين بـدر من هذين الرجلين المتقدمين في العمر حركات أنثوية ككدم البراجم بدلاً من المصافحة حين الافتراق.

عـاد بيتر إلى حاسوبه، واستخرج منه ملف عرض لشرائح «باوربوينت»، وحذرني من الاستشهـاد بأسمـاء الشركات الـواردة في العرض، وحين نظر إليّ لاحـظ وجود المسجل الرقمـي من نوع «آي بود» الذي كان موضوعاً علـى سطح مكتبه منذ بداية اللقاء، فصاح قائـلاً وقد تمالكه الذعر: «هل أنت تسجل ما أقول؟!» فذكرته ببداية الحديث الذي جرى

بيننـا في أول اللقـاء حين سألته إن كان لا يمانع من تسجيـل الحوار، غير أنه رفض بعناد أن يتابع اللقاء إلا إذا أوقفت آلة التسجيل. فقلت له: إن تسجيل الحوار هو ممارسة جيدة تمكنني من المضاهاة بين ما أكتبه وما هو مسجل في الشريط، زيادة في التوثّق من صحة مـا أكتـب، وإذا ما نشأ خلاف حول ما أنقله عنه من كلام، فإنـه يستطيع المقارنة بنفسه بين ما كتبت وما جاء في الشريط.

مع ذلك، لم يكن بيتر مرتاحاً للفكرة، ولكنه على الأقل هدأ قليلاً ليتم الحديث: «لقد خالفنا كثيرًا من النماذج القائمة. لقد عهدنا إلى شركات خاصة بمهمة القيام بالعمليات الدفاعيـة التـي لا يتطلب القيام بها وجود وحدات عسكريـة. فنحن لا نحتاج إلى الجيش لنقـل الأشخاص من مكان إلى آخر، ولسنا بحاجة إلى الجيش لتأمين نقل الإمدادات.... إننـا نقوم حصرًا بالدفاع عـن الموظفين، والمنشـآت، وحماية حركة الإمـدادات والنقل. لا نعتقـد أننـا بحاجة إلى جنود لحمايـة الأشخاص. دع الجنود يتولـوا مهمة قتل الناس، والتعامل بعنف مع عدونا».

«لا توجـد شركة أمنية خاصة واحـدة في العراق تقوم بعمليات هجومية. وقد قرأت في وسائل الإعلام بأن هذه الشركات هي التي تقوم بالعمليات الحربية، وهذا محض هراء». وهنـا وجد بيتر فرصة ثانيـة للتهجم على وسائل الإعلام، فسألته هل لديه أرقام حقيقية حول عدد المتعاقدين الأمنيين الذين يعملون في العراق الآن.

فبـدأ يسرد أرقاماً شبه رسمية مـن عنده، وقدّر بأن هناك زهاء ثلاثة آلاف إلى خمسة آلاف أمريكي يعملون في الحقل الأمني الخاص، وقرابة سبعة آلاف إلى عشرة آلاف من رعايا دول مثـل جنوب إفريقية، وبريطانية، وخمسة عشـر إلى عشرين ألفاً من رعايا دول العالم الثالـث- من دول مثل فيجي، ونيبال، والفلبين، والسلفـادور- وخمسة وعشرين إلى ثلاثين ألف عراقي. واعترف بيتر بأنه أسس هذه الأرقام على معلومات شفوية؛ لأن وزارة الداخلية العراقيـة لا تـزوده بالإحصاءات، هذا على فرض أن مثل هـذه الإحصاءات موجودة فعلاً. وهنا، أعادت هذه الفكرة بيتر إلى الوضع الدفاعي مرة أخرى: «يظن بعض الناس أننا نعمل في دولة تسير فيها الأمور بطريقة نظيفة وسلسة. إنك تجد أن الوزراء العراقيين يستخدمون

حسابات بريد إلكتروني من مواقع هوتميل وياهو! ويظن الناس أننا بلمسة سحرية يمكننا حل كل المشكلات وجعل الأمور تسير كالساعة!» وكان جلوسي بهدوء وأنا أستمع إليه يزيد من حدة انفعاله، ثم صرّ أسنانه وعاد إلى استعراض شرائح الباوربوينت.

تضمنت الشريحة اللاحقة أرقاماً وإحصاءات حول المتعاقد الأمني العادي. وبحسب تقديرات بيتر، فإن المتعاقد الأمني العامل في العراق هو في بداية الأربعين من العمر بحساب متوسط عام، ولديه خبرة عملية في الجيش تتجاوز العشرين عاماً بما فيها الخدمة في عدد من الدول خارج بلده الأصلي. ويؤكد بيتر أن «مجرد خلع الجندي لباسه الرسمي الموحد في الجيش لا يعني أنه يخلع معه أخلاقه المهنية».

ثم غطى بيتر الشريحة اللاحقة على شاشة حاسوبه بقطعة من الورق وسألني عن رأيي الشخصي في المتعاقدين الأمنيين. فقلت له: يبدو لي أن الأمريكيين منهم أشخاص طيبون على العموم، أكثرهم جنود سابقون في المارينز، أو أفراد أمن في بلدات صغيرة، ومن بينهم قلة يتمتعون بخبرة طويلة في العمليات الخاصة. فنظر إليّ نظرة ريبة وشك، وقال بنبرة الممتعض: «لا، قل لي رأيك الحقيقي». فأعدت عليه ما قلته. فأزاح بطريقة تنم على الغصب الورقة التي كانت تغطي الشاشة وظهرت الشريحة التي تقول: «رعاة بقر طائشون، يتقاضون أجوارً أعلى كثيراً مما يستحقون».

ثم مال بجسمه إلى الأمام وقال بنبرة مستعرة وهو يحملق في عيني: «انظر، إننا لسنا ملائكة نرقص على رأس إبرة! فقل لي الآن هل سبق لك أن شاهدت هذه العبارة من قبل»؟! فأجبته لا، وهي إجابةً أثار فيه عاصفة من الشتائم الشنيعة، وصرخ بصوت غاضب: «إنني أتوقع أن أتلقى منك معلومات إن كنت سأقدم لك معلومات!» وعندها بدأت أفكر بصمت حول الفهم الضيق للحقيقة لدى السيد بيتر. ومن حسن الحظ أن أحد الجنود جاء ليناقش مع بيتر موضوع ألوان العلامة المميزة التي سيحملها المتعاقدون الأمنيون وشيئاً آخر له علاقة «بإجراءات سياسة الأوسمة والأوشحة الخاصة بالمتعاقدين الأمنيين».

ويبدو أن هذا التبادل البيروقراطي كان له أثر ملطف في مزاج بيتر، فعدنا إلى نقاش أكثر عقلانية حول الانطباع العام عن المتعاقدين الأمنيين. ويلوم بيتر وسائل الإعلام

على عدم فهمها لهذه الصناعة وعلى تركيزها على بعض الأمثلة الشاذة وتقديمها للناس على أنها تمثل العاملين في هذا القطاع. «من هم الأشخاص السيئون. هل يجري جلبهم إلى هذا القطاع بنية سيئة؟ ألا يوجد هناك محامون، وقساوسة، وصحافيون لا يلتزمون بالقواعد الأخلاقية في مهنهم؟ أم أنهم جميعاً وصلوا درجة الكمال؟» وتحول مزاج بيتر إلى غفران مقدس يبرئ ذنوب القلة بالتضحية بالكثرة.

«إن المتعاقدين الأمنيين يؤدون واجبهم بالحد الأدنى من السلاح، ويناضلون في وجه أقسى الصعوبات. لقد وجهت دعوة إلى بيتر سينغر [زميل معهد بروكينز، مؤلف كتاب «عساكر الشركات»] للإقامة هنا شهراً واحداً. إن الأساتذة الناقدين يحبون طعننا بالرماح، نحن لدينا تعليمات وأنظمة متبعة! إن قرار سلطة التحالف المؤقتة رقم 17 يقول: إن ثمة قانوناً يطبق هنا!»

كان واضحاً لي وأنا أغادر حجيرة بيتر الخشبية أنه لا يخرج عن نطاق المنطقة الخضراء، ولا يخالط المتعاقدين الأمنيين كثيراً. ولو فعل ذلك لأدرك أن المذكرة -17- وهي الوثيقة الصادرة عن سلطة التحالف المؤقتة التي منحت المتعاقدين الأمنيين حصانة قانونية، تحول دون ملاحقة السلطات العراقية لهم، وتضعهم خارج نطاق اختصاص المحاكم العراقية- هي أبعد ما تكون عن تقييد حركة المتعاقدين الأمنيين وتصرفاتهم.

في صبيحة أحد الأيام استيقظت لأجد عشرة من المتعاقدين يحاولون بكل جهدهم نقل البث التلفازي من مستقبل إشارة القمر الصناعي إلى مسلاط العرض الضوئي على الشاشة الكبيرة في غرفة الاجتماعات. كان ذلك اليوم يصادف عيد الشكر في الولايات المتحدة، وكانوا يرغبون في مشاهدة لعبة كرة القدم الأمريكية على الشاشة الكبيرة، وكان من المقرر أن يصل طرد من شرائح اللحم البقري الطري على متن طائرة قادمة من عمان. ولا يرغب فريق الممبة في التأخر؛ لأن البديل الوحيد لعشاء عيد الشكر سيكون وجبة لحم الديك الرومي المصنع، وبعض الطعام الرديء الذي تقدمه شركة كيلوغ براون آند رووت في قفطير القصر.

توجهنا إلى المطار، وكان الحديث عن شرائح «الستيك» بين أعضاء الفريق يخفف من مشقة مراقبة أمارات الهجمات المحتملة. وكانت الرحلة خالية من أي عقبات على

الـدرب الآيرلندي. وحين دخلنا من بوابة المطـار متوجهين إلى موقف السيارات، لاحظنا وجود سيارة تتبعنا، ثم أوقف السائق سيارته على مسافة آمنة من المكان الذي أوقفنا فيه عرباتنـا، ثم نزل منها شخص عراقي، وبدأ يصـرخ علينا بالعربية. وكان يلوّح في الهواء ببطاقـة العاملين في المطار، وكان يحاول الظهور بمظهر أقـل تهديداً بالابتسام في طيات غضبه وهو يقترب منا، ويحاول التحدث بلغة إنجليزية ركيكة. وبدا الرجل حانقاً، ومثيراً للضحك، ولكنه غير مخيف.

عرف أحـد المتعاقدين سيارته وقال: «هيه، لقد كان هـذا الرجل يسوق سيارته قريباً منـا، فأطلقت باتجاهـه رصاصة تحذيرية». ولما كان هذا العراقـي يحمل تصريحاً أمنياً يخولـه دخـول المطار، حيـث يخالط الأمريكيين يومياً، فإنه يظهر أنـه لم يكن يدرك أن عليـه أن يبقى بعيداً عن القافلة ولا يقـترب منها. وحين شعر بالرصاصة التحذيرية التي أطلقـت باتجاهه راح يقترب من مؤخرة القافلة أكـثر؛ لكي يري فريق المبة بطاقة عمله في المطـار التي كانت تتدلى من المرآة الوسطى في سيارته، وهذه الخطوة هي غلطة بريئة كادت تودي بحياته.

وربما ظهرت هـذه الحادثة بوصفها مثـالاً على قيام المتعاقدين الأمنيين بتهديد وترويع المدنيـين العراقيين، إلا أن قواعد الاشتباك المتبعـة قد عملت بحسب ما هو منشود منها في هـذه الحالـة. وتقضي تعليمـات وزارة الخارجية في الأوضاع التي تشبـه هذه الواقعة، حين يلاحظ الفريق الأمني وجود سيارة مسـرعة باتجاهه وتقترب منه، بأنَّ على المتعاقد الأمني أن يحـذر السيارة بصـوت عالٍ ويشير إليها بيـده بعدم الاقتراب. فـإذا استمرت السيارة بالاقـتراب، فعليه أن يوجه رصاصة تحذيرية إلى محـرك السيارة أو العجلات. وإذا تحتم علـى المتعـاقـد الأمني إطلاق النار ثانية، فعليه أن يوجه وابلاً مـن الرصاص إلى السيارة القادمـة بحيث يقتـل من فيها ويوقفها تماماً. واعتمـاداً على سرعة السيارة القادمة، فإن ثواني معدودةً فقط تفصل بين الإشارة باليد والرصاصة القاتلة في الرأس.

(...) فبعـد كل هـذه المشقة، تبـين أن شرائح السـتيـك لم تصل المطـار لسـبب أو لآخـر، وكـان علينا أن نعود إلى مقرنا متجشـمين المخاطـر والصعاب صفر اليدين من الطرد النفيس.

استولت خيبة الأمل على بعض المتعاقدين وبلغت منهم حداً جعلهم يصرفون النظر عن الطعام كلية، وتوجهوا إلى الصالة الرياضية لتبديد إرهاق رحلة المطار بالتمارين الرياضية. أما البقية فقد بلغوا حداً من الجوع جعلهم يقبلون بالطعام الرديء الذي يقدم في المقصف الذي تديره شركة كيلوغ، براون، ورووت، فتوجهوا إلى قاعة الطعام في مبنى القصر الرئيس. لزمت الفتيات العراقيات اللاتي كن يقمن بتدبير المنزل الذي يقيم فيه فريق الممبة بيوتهن بسبب حظر التجول الذي فرض على المدينة، لذلك كان على المتعاقدين أن يعتمدوا على أنفسهم في تجهيز العشاء. ولولا المتعاقدون الأمنيون الذين يقومون بالمهمات العادية من طبخ، وغسل للملابس، وتنظيف الحمامات، لعاش الجيش والمتعاقدون الأمنيون الآخرون في مجاعة وقذارة.

ركبت أنا، وباز، وغاي، وريك في سيارة نيسان صغيرة مصفحة وتوجهنا صوب المقصف. في الليل يخيم على المنطقة الخضراء شعور غريب مخيف، ويجعل الغبار الكثيف من ضوء السيارات تبدو كأنها أعمدة صلبة، ويبدو أن صوت حركة الدبابات والشاحنات يكون دوماً عند حافة الحد الذي يتلاشى عنده الضوء. ولا يمكن مشاهدة الدبابات والعربات العسكرية التي تصدر عنها هذه القعقعة التي تلاحق المرء دون توقف إلا إذا أضاءت مصابيحها الأمامية الكاشفة. وبعد أن اجتزنا عدداً من التقاطعات المرورية، وصلنا إلى موقف ضخم للسيارات يعج بالسيارات الرباعية الدفع، فأوقفنا السيارة فيه ونزلنا قاصدين القفطير. ولا يحتاج الأمر سوى إبراز بطاقة الهوية الشخصية؛ لكي يعبر البوابة التي يقوم بحراستها جنود من الغورخا يعملون مع شركة غلوبال سيكيورتي. أشار غاي بيده إلى صفوف السيارات المتسخة والمغبرة، وقال لي: إن اتساخ السيارة أصبح علامة يميز بها رجال المقاومة السيارات التي يقودها الأمريكيون من غيرها: لأن الأمريكيين لا يغسلون سياراتهم، وقال غاي: «إن العراقيين لا يسوقون سيارات متسخة»،

وعلى طول الممر المتصدع المحاط بالأسلاك الشائكة، تتابعت جموع من الجنود النظاميين والمتعاقدين العسكريين الذين كانوا يتبادلون الحديث مع جموع من المتعاقدين المدنيين الذين يلبسون الخوذات ويسحبون خلفهم حقائب عمل جلدية. وفي هذه الأيام

أصبح يتحتم على المتعاقدين المدنيين لبس خوذات ودروع واقية من الرصاص داخل المنطقة الخضراء بسبب هجمات الهاون، ولكنهم لا يحملون معهم سلاحاً. ومع ذلك، تخيّلت أمامي حين رأيتهم يسيرون في العتمة وأكتافهم منحنية من التعب، جيشاً من المرتزقة البيروقراطيين يحملون بأيديهم حقائب «السمسونايت».

وعلى مقربة من المدخل المؤدي إلى القصر، وقف بعض المتعاقدين الأمنيين والموظفين الحكوميين للتدخين كما كانوا يفعلون في المباني المكتبية التي تحظر التدخين في الولايات المتحدة. وتبدو المنطقة الخضراء من الناحية الفعلية كأنها نموذج مصغر من الولايات المتحدة في جزيرة محصنة تطبق فيها القواعد والأعراف الأمريكية وسط بحر متلاطم من الفوضى. وبتشبيه أدق، يمكن القول: إن هذا التصميم المعماري الباذخ لقصر صدام حسين هو أقرب إلى جناح عراقي في مركز إبكوت[1]، هذا إن استطاعت شركة ديزني أن تضع خلفية تطابق أصوات المدافع ونيران المدفعية في خلفية المشهد.

وتستمر المؤثرات فوق الواقعية داخل القصر. قاعة مركزية كبيرة تحيط بها جدران ذات أقواس، وتعلوها قبة رائعة عالية تهيمن على المدخل، صممها صدام حسين لكي تثير في نفس الزائر حالة من الرهبة والدراما التي يجدها المرء حين يدخل مبنى الفاتيكان أو غيره من المباني العامة المشهورة. وكان يقف على الأرضية الرخامية أسفل القبة صفوف من الجنود بزيهم العسكري الشاحب، والشبان المتطوعين، والموظفين الحكوميين ذوي الكروش في انتظار دورهم لتناول ما تعرضه الكافتيريا من طعام العشاء. وتسجيل الاسم في قائمة المتعاقدين يعني أن بيان حساب وجبة العشاء سترسل إلى شركة بلاك ووتر بقيمة 27 دولاراً للشخص الواحد. كان يقدم الطعام طاقم من الطهاة الفلبينيين البشوشين، ويؤتى بأكثر الطعام من الولايات المتحدة، ويمكنك مشاهدة العلامات التجارية لأكثر المنتجات الأمريكية الرائجة التي قطعت نصف الكرة الأرضية لتصل إلى المنطقة الخضراء، بل إن

1- مركز ترفيهي أنشأته شركة ولت ديزني قرب مدينة أورلاندو بولاية فلوريدة، بالإنجليزية EPCOT، وهذه الكلمة هي اختصار لعبارة (Experimental Prototype Community of the Future)، أي النموذج التجريبي للمجتمع في المستقبل، ويتكون من قسمين: يعرض القسم الأول تسلسل التطور التقني وتوقعات المستقبل، ويعرض الآخر أجنحة تخص نشأة وتطور الولايات المتحدة وثماني دول أخرى.

أرقام الهواتف في المنطقة الخضراء تستخدم رمز اتصال أمريكي محلي.

تجمع قاعة الطعام هذه خليطاً عجيباً من الناس: جنوداً بزيهم الكاكي ورؤوسهم الحليقة، ومدنيين بتسريحات شعر طويلة، وفتية من الحزب الجمهوري، ومتعاقدين أمنيين يلبسون قمصاناً قصيرة الأكمام ونظارات شمسية. وقد جاء هؤلاء الأمريكيون من كل طيف ونوع إلى العراق لأسبابهم الخاصة؛ بعضهم جاء لدوافع وطنية وأداء الواجب القومي. وأكثر المدنيين -إن لم نقل كلهم- جاؤوا؛ لأنهم سيحصلون من العمل في العراق على أجور لا يمكنهم تحصيل مثلها من العمل في الولايات المتحدة.

وفي هذه القاعة المكتظة، شققنا طريقنا نحو منضدة كبيرة مستديرة هي من مخلفات عهد صدام. لوّح غاي بيده ليجلب انتباه المتعاقدين الأمنيين الآخرين الذين كانوا يحملون سلاحهم إلى جانب صينية الطعام. ويمكن تمييز الأشخاص الذين يلبسون الملابس المدنية بسهولة من بين الجموع. وجاء شاب في العشرينيات من عمره، ذو شعر طويل، يلبس نظارات شمسية، وقميصاً مزركشاً ينم على ذوق سقيم، شخص من جيل الهبيز يبدو في غير مكانه هنا، وكان يحمل معه كاميرا كبيرة، جاء ليشاركنا الجلوس حول المائدة. كان هذا الشخص من أعوان الحزب الجمهوري في الكونغرس، جاء إلى العمل هنا لمساعدة سلطة التحالف المؤقتة. بدأ هذا الشخص من فوره بالحديث والتعريف بنفسه قائلاً: «كنت أعمل معاوناً برلمانياً في ميامي في مجال اختلاق الأرقام لكسب العيش. انتدبت للعمل هنا، وجئت للعمل في وظيفة ليس لها وجود. وقد سبق لي أن عملت في وظائف لا أعرف عنها شيئاً. والآن أقوم بأعمال المحاسبة. إنني أكره المحاسبة، وأكره الأرقام».

وقال عن نفسه: إنه ينحدر من نيويورك، وهو ما أثار انتباه أحد المتعاقدين الأمنيين الذين يعملون في بلاك ووتر، حيث عمل هذا المتعاقد في السابق شرطياً في مدينة نيويورك، فقال له: «هيه، لا تقل للناس إنك من نيويورك، بل قل لهم: إنك من الولاية التي تسكن فيها؛ لأنّك تسيء إلى سمعة سكان نيويورك». ثم اعتذر المتعاقد الذي يتحدث بلهجة سكان بروكلين من نيويورك، وفسّر نزقه وسرعة غضبه التي بدت في حديثه بأن راح يسرد الصعوبات التي واجهها في إرسال جثث زملائه القتلى من المتعاقدين الأمنيين من

بلاك ووتر إلى ذويهم؛ إذ دفعته تلك التجربة إلى النقمة على الموظفين البيروقراطيين في المنطقة الخضراء: «كنا نحاول إرسال مواطن أمريكي مع جثة أخيه في الطائرة المتوجهة إلى الولايات المتحدة، لكن السلطة وضعت أمامنا من العراقيل والعقبات ما لا يمكن اجتيازه. فحين يموت أحد من موظفي الحكومة، تسدى إليه معاملة خاصة وتعد له ترتيبات خاصة، أما حين يموت واحد منا، فلسنا سوى «حراس أمن».

لا يوجد «أبطال» في عالم الأمن الخاص، بل عاملون لقوا حتفهم ليضافوا إلى إحصائيات وأعداد الموظفين في الشركة التي توظفهم. وقال مايك: إن بلاك ووتر تحاول جهدها الاعتناء بموظفيها، لكن ذلك يتطلب موازنة دقيقة؛ لأن كل متعاقد يعمل مع الشركة يعي جيداً حين يوقع على عقد عمله المخاطر المصاحبة لهذا العمل، ويعلم أن الشركة غير ملتزمة بأي تعويضات مالية بعد الموت عدا التأمين الأساس الذي يفرضه قانون التأمين الأساس للدفاع. ولعل هذا يقدم لنا بكل وضوح وقسوة أن الجانب التجاري من الحرب يتطلب التعامل على طريقة المرتزقة. ليس ثمة عقيدة في عالم الأمن الخاص، ولا وطن، ولا عَلَم. ليس لهذا العالم رب يقاتل في سبيله ولا بلد يقاتل من أجله. بل كل ما هناك هو شيك أجر العمل. وحين يموت المتعاقد الأمني دفاعاً عن شيك أجر العمل، تقوم الشركة التي كان يعمل فيها بإرسال آخر شيك إلى ذويه، وعادة ما تحسب قيمته حتى آخر ساعة مات فيها، مرفقاً بصندوق يحتوي على مقتنياته الخاصة. وفيما عدا ذلك، لا تتحمل الشركة التي يعمل فيها المتعاقد ولا الحكومة الأمريكية أي مسؤولية قانونية تجاه أسرته.

ولا يتطلب موت المتعاقد الأمني أي ترتيبات رسمية باستثناء إرسال جثته أو بقايا أشلائه إلى ذويه، وملء نماذج خاصة لغايات التأمين، ومع ذلك، سافر مايك رش بنفسه إلى هاواي لإخبار زوج ويز باتالونا بوفاة زوجها [في حادثة الفلوجة]. «إننا ننظر إلى هؤلاء الأشخاص بوصفهم أخوة لنا من أسرة واحدة، ونقدم لهم كل ما يمكننا تقديمه».

انتهى العشاء بهذا الحديث الكئيب، وقفلنا عائدين إلى المنزل. وعند آخر نقطة تفتيش أمريكية قبل وصولنا المنزل، سُلّط علينا ضوء ساطع كثيف حوّل زجاج السيارة المتسخ

إلى سطح أبيض لامع. كان علينا الانتظار إلى أن يشار إلينا بالتحرك إلى الأمام، ولكن كان من المستحيل رؤية عناصر المارينز الواقفين على البوابة. وقال لي مايك: «أتظنهم سيزودون هؤلاء الأشخاص بمصابيح يدوية»؟!

أنزل مايك زجاج نافذة السيارة، وتقدم إلى الأمام ليبرز بطاقة هويته ويتحدث إلى الجنود الذين يحرسون نقطة التفتيش: «كيف حالكم الليلة؟»

وبصوت بدت فيه بوضوح نبرة الإعجاب والرهبة، سأل الشاب من المارينز: «هل أنتم من بلاك ووتر؟»

ورد مايك بصوت هادئ مثير للإعجاب: «هل كل شيء على ما يرام؟» جمع جندي المارينز كتفيه من البرد، وتشكلت غيوم بيضاء صغيرة من أنفاسه أمام وجهه، وقال: «في أحسن حال، سيدي».

في تلك الليلة الباردة، كان الخوف والتعب يظهر على وجوه المارينز الذين يحرسون البوابة. وينظر هؤلاء المارينز إلى المتعاقدين الذين يعملون في بلاك ووتر بوصفهم نجوم الحرب، فسأل أحدهم: «هل يمكننا التوقف في مقركم لأخذ بعض قبعات الشركة؟».

فرد عليه غاي: «بكل تأكيد».

وقال لي غاي بعد استئناف المسير: «إن هؤلاء الفتية يقفون على خط النار الأول؛ لذلك أحرص دوماً على التوقف والسؤال عنهم. وحين يحدث تفجير انتحاري، فإن أول هدف لهم هو هذه البوابة».

على الرغم من كل المساوئ المصاحبة لعمل المتعاقد الأمني، إلا أن المتعاقدين الأمنيين الأمريكيين يتربعون على قمة هرم الحرب في العراق، وإن كانوا لا يعترفون بذلك. فهم يحصلون على أعلى الأجور، ومع أن المقاومة قد تستهدفهم بهجماتها في أثناء عملهم، إلا أن المتعاقدين الأمنيين لا يسيرون في أزقة معتمة، ولا يقتحمون الأبواب، ولا يمضون السنة بكاملها بعيداً عن أسرهم. وهذا المارينز الشاب الذي يحرس البوابة ستصيبه في الغد رصاصة قناص، وسيعود آخرون إلى وطنهم ليواجهوا حياة زوجية متعثرة،

وديوناً متراكمة، وحساباً مصرفياً خالياً من النقود. في حين يعلم المتعاقدون الأمنيون أن باستطاعتهم التحوّل من وظيفة إلى أخرى، وأن يغيروا رأيهم، أو أن يقرروا العودة إلى بلادهم في أي وقت إن أرادوا ذلك. وبخلاف المارينز الذين يرتجفون من البرد على البوابة 12، ويحصون الدقائق المتبقية لانقضاء الليل وبزوغ الفجر، يدرك المجربون أن الحرب هي على درجة من البشاعة والخطر بما لا يسمح للمرء أن يدخل فيها بأجر زهيد. وكما قال لي ريك في طريق عودتنا إلى المنزل: «كل الناس هنا يكسبون أجراً قدره ألف دولار في اليوم باستثناء الجنود الذين يقاتلون في هذه الحرب». وبالإضافة إلى أجرهم اليومي، يتقاضى المتعاقدون مع بلاك ووتر مبلغ 650 دولار في الأسبوع للمصروف الشخصي. وقد قام غيكو بشراء بندقية آلية من نوع بي إم 5 بسعر 1300 دولار. واشترى تي- بوي سيارة بي أم دبليو مستعملة من الفئة السابعة بمبلغ 5 آلاف دولار. ولم يسبق لبعضهم أن توافر لديه مثل هذا المال طَوالَ حياته. لكن مع الأخذ في الحسبان النقاش الذي دار بينهم قبل قليل حول الموت، فإن هذا العمل من وجهة نظري هو صفقة خاسرة. لكنني أدركت سريعاً أن كل متعاقد له حساباته الخاصة التي يوزن بها مخاطر وفوائد وظيفته.

كان صباح اليوم اللاحق شديد البرودة لدرجة أن مولدات الكهرباء كانت بحاجة إلى دفعة كهربائية من بطارية السيارة لكي تعمل. وبعد حل تلك المشكلة، مكث ريك، مدير الإمدادات، في الخارج، (...) فجلست للتحدث إليه وأصبحت تلك عادة يومية كل صباح. وحين أخذ نفساً من تلك اللفافة، قام ريك من دون شعور بفرك العلامة الكبيرة التي بقيت على عنقه في موقع العقد اللمفية التي استؤصلت بعد تشخيصها بالسرطان قبل عدة سنوات. وعلى نحو غير واف اقترحت عليه أن يفكر في يوم من الأيام بترك التدخين مراعاة لصحته، فأثار كلامي منه هذا الرد: «آه، أتريد أن تسمع قصة محزنة؟» ومن الواضح أن ريك كان قد توقف عن التدخين بعض الوقت بعد اكتشاف إصابته بالسرطان، ولكنه عاد إليه بعد حين لم يعد قادراً على مواجهة التوتر الناتج عن خلافه مع ابنته. قال لي: «لقد وفرت لها كل ما تحتاجه، ولكنني وصلت إلى مرحلة لم أعد قادراً فيها على الاستمرار. فكان علي أن أضع حداً. فقلت لها: «ليس لدي مزيد من المال؛ عليك أن

تدبـري أمورك بنفسك». فقالت لي: إنهـا تكرهني؛ فعدت بعدها إلى التدخين». ويبدو أن هـذا الشقاق أثر عليه كثـيراً، ولكنه لا يعتقد أن هناك طريقة مـا لحل الخلاف. وسألته إن كان لديـه قلق مـن إصابته بالسرطان ثانية؟ هز ريك رأسه، وقـال: «لا بد أننا جميعاً سنواجه الموت في يوم من الأيام». ويتطوع ريك عادة بقيادة شاحنة البونغو غير المصفحة وبطيئة الحركة.

في المسـاء، وبينما كنت جالسـاً في غرفة التلفاز أدون بعض الملاحظات وأكتب بعض الأفكار، سمعت أصواتاً مرتفعة لمحركات السيارات، تطغى عليها أصوات صاخبة لنغمات قيثـارة. توجهت إلى خارج المنزل لأرى غيمة مـن الغبار الكثيف فوق أسوار المجمع قادمة من جهة الشارع. لقد وصل فريق الحلة التابع لبلاك ووتر.

أوقـف فريـق الحلـة سياراتهم المكونة من ثـلاث سيارات مصفحة من طـراز جي إم سـي سوبربـان إضافة إلى حافلة غير مصفحـة في الأصل– ولكـن المتعاقدين صفحوها بطريقتهم الخاصة- يطلق عليها «حافلة الكراهية». وهذه التسمية الاصطلاحية الرسمية لحافلـة الكراهية كناية عن الفريـق المضاد للهجمات؛ لأن هذه الحافلة تبقى متأخرة عن باقـي العربات. وحين تقع القافلة في كمين ما، تسارع حافلة الكراهية بمشاغلة المهاجمين وإطـلاق النار عليهـم ريثما ينجح الباقـون في الانسحاب. وفي داخل هـذه الحافلة ثبتت صفائـح معدنية صدئة على الأبـواب جاعلة منها سيارة مصفحـة رخيصة لكنها فاعلة. ويحرض الفريق على الإبقـاء على سيارات السوبربان الأخرى نظيفـة أنيقة لغايات نقل الشخصيـات المهمـة، ولكن يبـدو أنهم ضمـدوا الصفائـح المعدنية في حافلـة الكراهية بشريـط لاصق فضي اللـون. ويغطي غبار الشوارع السيارة مـن الداخل والخارج، ويبقي الرمـاة المهرة علـى الباب الخلفي مفتوحاً، وهـذا من شأنه أن يجلب مزيـداً من الرمال والغبـار إلى مؤخـرة السيارة فيغطـي كل شيء بمسحوق ناعم بني اللـون. دعاني متعاقد يطلق عليه لقب «ترنك مونكي» (أي قرد صندوق الحافلة الخلفي) ، وهو جندي سابق من قـوات سيل، أشقر الشعر ضامر الجسم، إلى معاينـة الحافلة. وفي مؤخرة تلك الحافلة، يركـب صديقنا في صندوق حديدي من صنع يدوي، وتتدلى مـن السقف أسلحة متنوعة: مسدس لإطلاق النار على الأهـداف القريبة جداً، وبندقية رشاشـة للأهداف الجدية.

وعلى العكس من سيارة السوبربان الأنيقة المزودة بمكيف لتبريد الهواء، تنبعث الكراهية من الجمجمة البلاستيكية المثبتة على لوحة عدادات السيارة، إلى أطراف الألواح المعدنية الصدئة من هذه السيارة المصفحة يدوياً، إلى موسيقا الروك الصاخبة في هذه الحافلة المشوهة.

ترجّل أعضاء فريق الحلة عن خيولهم الحديدية، وراحوا يتبخترون أمام المنزل لتحريك الدماء في أرجلهم بعد الرحلة الطويلة من مدينة الحلة. لقد كانوا متعبين ومتسخين، ولديهم بعض الوقت لإضاعته قبل التوجه إلى المطار لنقل فريق جديد من مطار بغداد الدولي. ومع أنه كان لديهم فسحة من الوقت للاستراحة، إلا أن فريق الحلة لم يقطعوا يقظتهم لحظة واحدة، وآثروا الوقوف والمراقبة، ولم يبتعدوا كثيراً عن عرباتهم. وسينضم فريق الممبة إلى فريق الحلة في الرحلة إلى المطار في قافلة واحدة، لكن هذه الفكرة لم ترق لأعضاء فريق الحلة. وقال متعاقد ملتح من فريق الحلة مازحاً «هل سنسير مع فريق الممبة؟ سيقضى علينا إذاً لا محالة!» وهذا التصرف يعكس نوعاً من عدم الريبة التي نجدها شائعة بين أعضاء الفرق الأمنية جميعها في هذا القطاع.

يتألف فريق الممبة في أكثره من عناصر سابقة من قوات المارينز؛ في حين تغلب العناصر السابقة من قوات سيل على فريق الحلة. ومع أن كلا الفريقين يؤديان عملاً واحداً في الشركة نفسها، إلا أن كل فريق ضمن شركة بلاك ووتر يمثل قبيلة مستقلة. وفي بعض الأحيان تتألف فرق الحراسة من عناصر متجانسة من قوات سيل، أو المارينز، أو القوات الخاصة، مما يؤدي إلى تعميق وترسيخ الهوية الجماعية للفريق الواحد. والأشخاص الوحيدون الذين لا ينتقصون من قيمة زملائهم الآخرين في العمل هم المتعاقدون الذين سبق أن خدموا في قوات الشرطة؛ لأنهم ليسوا على تلك الدرجة من الكبرياء والخيلاء. ويتمتع الفريق الواحد بقوة التلاحم والترابط بين أعضائه، وقد يتردد الواحد منهم في الثقة بأي شخص من خارج الحلقة الصغيرة التي ينتمي إليها،

مـع الشـك دوماً بـأن أي أسـلوب تتبعه الفـرق الأخرى في العمل هو أقـل أماناً مما يفعله فريقه.

بدأت بالتقاط الصور الفوتوغرافية خارج المنزل حين تهيأ الجميع للانطلاق. وقبل أن ينضـم رامي المؤخرة إلى مجموعته ليظهر معهم في الصورة، نزع قطعة من شريط أسود ليغطي بها عينيه، فقال أحدهم مازحاً: «هيه، أليست تضاف هذه فيما بعد؟» وصاح آخر مقترحاً صيغة التعليق الذي يجب أن يوضع أسفل الصورة: «الجنود المرتزقة في العراق». ثم جاءني متعاقد قصير مكتنز الجثة، يحمل عتاداً ثقيلاً، متقوس الساقين كرعاة البقر، وقـال لي بعـد أن تفـل ما كان يمضغه مـن تبغ بني: «لـدي خبرة عشرين عامـاً في قوات المارينـز، ولسـت أدري إن كان هنـاك ما يمكنني فعله. اللعنة، بل إننـي لا أعرف إن كنت سأحسـن فعل شيء آخر غير هذا!» ثم ركب المتعاقدون في عربات القافلة، وتفقدوا العتاد وأجهزة الاتصال، واختفوا وسط غمامة من الغبار وصخب موسيقا المتاليكا.

وبعـد عـدة ساعات، في أثنـاء عودتهم من المطـار، تعرض فريق الحلـة لكمين نفذته مجموعـة من حافلات المقاومة التي ظهرت فجأة وبدأ ركابها بإمطار سيارات السوبربان برصاص بنادقهـم الرشاشة. ويبدو أن المقاومـة لم تلحظ حافلـة الكراهية بموسيقاها الصاخبـة وطلسـم الجمجمة المنصوبـة على مقدمتهـا، وهي تتجه بسرعـة نحوهم من الخلـف. أخرج رامي المؤخرة رشاشه الأوتوماتيكي وأمطر حافلات المقاومة بوابل مستمر مـن الرصاص محدثـاً ثقوباً فيها، فقتـل منهم واحـداً وأجبر الباقين علـى الفرار وفك الاشتبـاك. ومع فرار المقاومة وتفرق عناصرها في كل اتجـاه، كان أمام فريق المتعاقدين أن يتخـذوا قراراً في أقل من ثانية بمواصلة القتـال وتعقب العناصر الفارة أو بالانسحاب مـن المكان، ولكنهم اختـاروا الانسحاب. وأبدى رامي المؤخـرة ذو الشعر الأشقر غضبه؛ لأنـه كان يتمنـى لو سمح لـه بإنهاء المهمة بقتل بقيـة عناصر المقاومـة، ولا سيما بعد أن علموا فيما بعد أن المقاومة عادت إلى مكان الحادث واستخدموا جثة الشخص الذي قتل في نصـب فـخ للجيش الأمريكي. ونتج عن هذا الفخ قتل أحـد عناصر قوات المارينز التي جاءت لتفقد موقع الحادث حين حركوا جثة القتيل.

مغادرة العراق

بعد عدة أيام، خرجت مع فريق الممبة إلى المطار في رحلة لا عودة فيها. فقد انتهى الشهر، وحان وقت العودة إلى الوطن. وفي هذه الرحلة الأخيرة على الطريق الآيرلندي كانت المشاهد المعهودة من الحفر السوداء المملوءة بالحجارة والسيارات المتفحمة على جانبي الطريق لا تزال على حالها. وأصبح من السهل الآن تمييز المريب من العادي. ودعت أعضاء الفريق في قاعة استقبال الطائرات القادمة، وتمنوا جميعهم لي التوفيق. لقد استمتعت في الوقت الذي قضيته مع فريق الممبة، وهو وقت كنت فيه مصدراً احتياطياً للرصاص، وسامعاً لاعترافات آخر الليل، ومستشاراً. بعض هؤلاء الأشخاص سيتبدلون بعد شهر، وعلى الرغم من حدة العنف الموجود هنا، إلا أنني أعتقد أن مياغي ونظرته الشرطية الجادة لهذه الوظيفة ستبقيهم في أمان.

وبعد آخر تلويح وداع باليد، توجهت إلى الداخل لأقابل طاقم طائرة كاسا 212 التابعة لشركة بلاك ووتر، وهي طائرة صغيرة خاصة تنقل المتعاقدين من العراق وإليه. وعلى النقيض من طائرات الملكية الأردنية التي تستخدم طائرات فوكر ذات الحُجرة المضغوطة (المفرغة من الهواء) والمحركين النفاثين، يتسم السفر على متن طائرات كاسا بطول الوقت الذي تستغرقه الرحلة، وبالضوضاء، والبرد القارس فوق صحراء ممتدة تخلو من أي تضاريس مميزة.

وتتشابه الإجراءات المتبعة في مطار بغداد الدولي التي تسبق الدخول إلى الطائرة مثيلاتها في الولايات المتحدة؛ إذ قامت فتيات عراقيات بتفتيش حقائبنا بعناية متجاهلات أي شيء متوارٍ عن الأنظار. وعلى بوابة التفتيش، رجل أمريكي أصلع متقدم في السن قد سرح ما بقي من شعر في رأسه فوق صلعته لإخفائها بطريقة رديئة، قام بتفتيشنا بتحسس لأجسامنا لم يكن له داع -وأقول لم يكن له داع ولا سيما بعد أن أخبره أحد أفراد طاقم الطائرة بأنه يحمل مسدساً عيار 9 ملم من نوع غلوك- ولكنه خضع للتفتيش على كل حال. ثم قام موظفو أمن المطار، وعلى نحو مثير للسخرية، بتمرير المسدس عبر آلة الكشف التي تعمل بأشعة إكس قبل أن يعيدوا المسدس إلى صاحبه. ولا يسمح لغير طاقم الطائرة بحمل مسدسات إلى الطائرة، وصودرت مدية صغيرة من النوع القابل للطي من أحد

أعضـاء فريقنا. وقـام موظفو أمن المطار بتسليمها إلى الطيار الـذي أعادها إلى المتعاقد أمامهم، وظهرت علامات الاشمئزاز على المتعاقدين المسافرين معنا من هذه المهزلة. إننا جميعـاً نعـي أن أياماً فقط ستمضي قبل أن يتمكن أحد من تهريب سيارة مرسيدس معبأة بالمتفجـرات على متن طائـرة دي إتش إل. إن حمل مسدس أو مدية صغيرة تبدو أمراً غير ذي بال، ولا سيما أننا مسافرون على متن طائرة خاصة تابعة لشركة بلاك ووتر.

وفي أثنـاء سيرنا نحو سلم الطائـرة، صاح بنا أحد موظفي أمن المطـار طالباً مِنَّا أن نمشـي في الممر المحدد بشريـط أصفر من الجانبين. وهو إجـراء ليس له تفسير منطقي يقبله العقل، ولكن -مرة أخرى- إنه مطار بغداد الدولي.

وبعـد أن جلس الركاب جميعـاً في مقاعدهم، فتح طاقم الطائرة من شركة بلاك ووتر صندوقـاً كبـيراً مصنوعاً من الألمنيوم، وقاموا بتوزيع بنـادق إم- 4 معبأة بالرصاص على جميـع الركاب. وسبب هذا الإجراء هو أنه لو تعرضت هـذه الطائرة للسقوط، ونجا منها أحد، فإنهم لن يسمحوا للحادثة أن تمر دون قتال. وزيادةً في الحرص على حياتنا في حال تعرض الطائرة إلى الإسقاط، فقد قام قائد الطائـرة بتخفيض المنصة الخلفية للطائرة التـي تستخدمهـا العربـات في تحميل الطائرة. ولم تقلـع طائرة الكاسـا كبقية الطائرات باتجـاه أفقي متصاعـد، بل انطلقت إلى الأعلى كالصاروخ، بعكـس الدوران اللولبي الذي تفعلـه طائـرات الملكيـة الأردنية حين تهبط في المطـار. ولا يمكن مشاهـدة أي شيء سوى الأرض من الباب الخلفـي المفتوح. وبعد أن وصلت الطائـرة إلى ارتفاع آمن بتجاوز مدى الصواريـخ المضـادة للطائرات، أعيـدت الأسلحة إلى الصندوق. وقـد أثبت هذا الإجراء الذي يبدو مغالاة في الاحتياط تصل إلى درجة الجنون، أنه إجراء أمني مناسب وذلك بعد ثلاثة أشهر إذْ أسقطت عناصر المقاومة العراقية إحدى الطائرات المروحية التابعة لشركة بلاك ووتر، وسحبوا الطيار الجريح على الأرض وأطلقوا عليه النار من مسافة قريبة.

بعد أن هبطت بنا الطائرة في الأردن مساء ذلك اليوم، تسببت رصاصة وحيدة وجدت في حقيبـة أحـد المتعاقدين في تأخير عبورنـا حواجز الجمارك الأردنية، ومـع أن الأردن شحن آلاف الأطنان من الأسلحة الثقيلة والخفيفة إلى العراق، إلا أنه لا يرغب في أن يعود

إليـه أي شيء منها. وقد أخرجنـا من تلك الورطة ضابط سابـق في المخابرات الأردنية، تمكن من حل المشكلة مع الجمارك في غضون ساعة من الزمن.

تستخـدم بـلاك ووتر فندقـاً عادياً في عمان لإيـواء المتعاقدين القادمـين من العراق والمغادريـن إليه، وكان جسـتن «شرك» في استقبالنا هناك حـين وصلنا إلى الفندق. ومع أن تلـك الليلة كانت أول سهـرة خارج العمل للمتعاقدين القادمـين من العراق منذ ثلاثة أشهـر، وآخر سهـرة للمتعاقدين المتوجهين إلى العراق الذيـن سيبقون فيها ثلاثة أشهر، إلا أن قاعـة البـار الرياضي الموجود في الطابق الثامن من الفنـدق كان يسودها جو قاتم كئيب؛ إذْ جلس المتعاقدون العائدون إلى الوطن يفكرون بصمت في آلاف الأمور والأشغال الروتينية التي تحتاج إلى اهتمامهم لدى وصولهم الوطن. في حين كان القادمون يفكرون في المخاطـر والمغانم الناجمة عـن حصرهم بين المقاومة العراقيـة والاحتلال الأمريكي. خـرج المتعاقـدون من قاعة البار في وقـت مبكر؛ لكي يجهزوا حقائـب سفرهم، ويتصلوا بذويهم، وينالوا قسطاً من النوم قبل اللحاق بطائراتهم التي ستقلع في الصباح الباكر.

وحين استلقيت على السرير، وقبل أن أخلد إلى النوم، رحت أفكر في عشرات الدوريات التـي رافقت فيها فريق الممبة على الدرب الآيرلندي. لقد تعاقبت عدد من فرق الحراسة الشخصيـة التابعة لبلاك ووتر بين القـدوم والذهاب في الشهر الذي أمضيته في العراق. جـاء متعاقـدون جدد، وعـاد آخـرون إلى أوطانهم. وكانـت السيارات الملغمـة، وطلقات القناصة، والطرق المغلقة، والطرود المشبوهة وسط الطريق، والسياقة بسرعة عالية على طريق المطار، كل ذلك جزءاً اعتيادياً من العمل اليومي. وأصبح الإيجاز الصباحي الذي كان في وقـت من الأوقات مخيفـاً ومرعباً، روتينـاً مملاً كما ذكّرنا مياغي في بداية ونهاية كل إيجـاز: «يـوم جديـد، مهمة جديدة». وكانت عـودة فريق الممبة بسـلام إلى مقره من طريـق المطار تعني انخفاض احتمالات التعرض للإصابة قبل عودتهم إلى أسرهم. قال لي تي – بوي، قبل مغادرتي العراق: إنه يعتقد أنني كنت فألاً حسناً لهم؛ لأنه لم يقتل أحد مـن الفريـق المتعاقد أو يصب بجراح طوال وجودي معهـم. ولم أعلم أنه بعد عدة أسابيع من مغادرتي العراق، تعرض فريق الممبة لهجوم بعبوة ناسفة أودت بحياة أحد المتعاقدين وإصابة اثنين من فريق الممبة بجروح بليغة كان أحدهم مياغي.

أما الآن، فإني مرتحل من هنا.